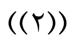
عند حواف الموت



مجموعة قصصية

عند حواف الموت

أحمد مصارع

عند حواف الموت

تأليف: أحمد مصارع

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ٠٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

السلطان والبرد

في هذه السنة، رجع الشتاء ليحتل دوره باكراً، فقد أزاح الخريف على عجل، حين ملأ السماء بسحبه القاتمة وأمطاره الغزيرة، ثم أتبعها برياح باردة، حولت بيتنا المتواضع إلى ثلاجة كبيرة، وكعادتي حين يستقر الشتاء أشعر بالخوف والقلق من موجات البرد القارصة.

لم أكن أخشى على نفسي من البرد، فأنا ممن يحبون مواجهة الظروف الطبيعية كما هي، وأحب أن أتكيف معها بطريقة بدائية وبسيطة، لأن الابتعاد عن الطبيعة سيؤدي إلى الضياع، والى فقدان المرونة، مرونة الأشجار الريانة وهي تميل وتنحني أمام الرياح العاتية، فالعالم مازال بدائياً، على هيئته الأولى، والحضارة ما زالت مهددة بالأعاصير والفيضانات، وكوارث الزلازل.. ولو كنت وحيداً بدون أسرة، فلا أبالي..

منذ فترة بعيدة، كان يحدث ذلك، بسبب الحاجة إلى نفقات الوقود، بينما هذه المرة، لم أكن أخشاه كثيراً، لأنني كنت قد وفرت بضعة آلاف من الليرات، كانت تلك الصرة الصغيرة تبعث في نفسي دفئاً داخلياً، وتبعد عن روحي أشباح الخوف القديمة، ففي كل شتاء يمضي، كان الوقود ينقطع فالوقود له ثمن بينما جيوبي خاوية من النقود، كان علي أن أشتري المازوت يومياً، لأملأ خزان المدفأة الوحيدة بالمنزل، صوبة واحدة، موضوعة في بهو المنزل، ويحاصرها كل سكان المنزل، فعندما يشتد الصقيع يظلون حولها ليلاً ونهاراً.

كان علي في كل مساء، أن أقطع مسافة بعيدة نحو محطة الوقود، سيراً على الأقدام، وتحت المطر الغزير أحياناً، والريح الباردة، لأشتري فاكهة الشتاء، المازوت الذي يحترق ليعطي النار، فالنار فاكهة الشتاء، فسياط الجوع أهون من سموم البرد، وحين أعود بالصفيحة ممتلئة، وطيلة الطريق، أشعر بالفرج القريب، أعد أيام الشتاء يوماً بيوم، فأستنتج عدد الصفائح الباقية حتى ينقضي الشتاء ويخف العناء.

يبدو أن كل من أعرفه من أصحاب السيارات، كان يفر من طريقي، بل ويتعمد تجاهلي، فللمازوت رائحة كريهة كما يقولون، ومن حق الناس أن يهربوا من تلك الرائحة، فمن يضمن أيضاً أن الصفيحة لا يسيل منها بعض القطرات.

أقيم لوحدي في غرفة كبيرة، ولكي تدفأ قليلاً، سأحتاج إلى وقود كثير، لذلك مرت سنوات طويلة لم تشهد غرفتي الجو المعتدل سوى لأسابيع قليلة من السنة، فهي حارة صيفا وباردة شتاء، ولذا تجدني مضطراً، لارتداء الملابس الثقيلة شتاء، حتى أنني أتلفلف ببطانية قديمة من صوف الماعز كما لو كانت عباءة صوف، وقد فصلتها بنفسي كما يفعل الرعاة، بطريقة خشنة وفظة، وكنت حريصاً عليها من الاهتراء والتلوث، لذلك اعتني بها كما لو كانت سلاحي الفردي في مواجهة وحوش الشتاء، وعندما أرتدي تلك البطانية، كنت أتحدى بها برد القطب الشمالي نفسه، فأفتح شبابيك الغرفة ليلاً، وأنام بالقرب منها.

مع الأسف، فقد أحست زوجتي بوضعي المطمئن، وكالعادة راودها الشعور بأنني أخزن صرة من المال، فعلائم القلق والتبرم، لم تظهر على وجهي، فلم أشتكِ إليها هذه المرة، من البرد القادم ونفقات الوقود وحين أنذرتني قائلة

-: لقد عاد الشتاء من جديد..

قلت لها من غير اكتراث:

-: ليأتي البرد، أهلاً وسهلاً به..

سألت بفضول ماكر:

-: ماذا عن ثمن الوقود يا عزيزي.؟.

لم أكن نزقاً كعادتي، فقد أجبتها برحابة وأريحية:

-: هذه السنة لا تخافي أبداً يا عزيزتي، فلدي ما يكفي ويفيض.

لا أدري كيف استطاعت بدهائها، أن تسحب مني صرة النقود، لتتصرف هي بكل حكمة، ولتجنبني التبذير، فأنا لا أحسن التصرف أبداً، وأهدر النقود

بشكل طائش.

بعد يوم من التسكع في شوارع المدينة، عدت إلى المنزل كما لو أنني أعود من العمل، بينما أنا عاطل عنه منذ سنوات طويلة، فعند باب المنزل وجدتها تتبادل الحديث مع جاراتها، والتهاني وحلت البركات، وحين دلفت إلى غرفتي البائسة فوجئت برؤية مدفأة ذهبية، تتمدد كعروس زاهية بثيابها ولم تتحلل منها بعد، فرحت أتلمس معدنها الصقيل، وحين أغلقت الباب هرعت نحوي بفرح ثم قبلتني بحرارة، وهي تدعو:

-: بحياة راسك، وربي يخلف عليك.. إنك لن تدري من أين سيرزقك الله..

-: إن شاء الله.. مبروك عليك المدفأة الجديدة.. إنها رائعة.. جميلة كالعروس..

-: صدق يا حبيبي، كل الجيران غاروا منها، وقد اعتمدوا شراء مثلها.. تخيل من بين كل المدافئ لم تعجبني سواها، لا الملك ولا الرئيس، ولا حتى الشمس والنور، السلطانية أفضلهم جميعاً.

فكرت أن أقول لها بفظاظة بالغة: اسمعي أمامك اختياران، إما المدفأة أو شراء الوقود، ترددت، ثم قررت أن أنتظر وأرى، فهي إن أرادت شيئاً، فلابد أن تشتريه طالما هناك نقود موجودة، فحواء التي أنزلت آدم من الجنة المكيفة، إلى الأرض الملعونة من البرد والحر، فكم من عمر الإنسان يقضيه بحثاً إما عن الدفء وإما عن البرودة.. أما زوجتي العزيزة فقد أنزلتني فوق مسرح هزلي ضاحك من المرارة، على هيئة حداد بدون فحم..

-: انظر إليها يا زوجي ما أجملها..

قبل أن يشتد البرد، أشعلت المدافئ، وحين أوشك المازوت على النفاذ، أصيبت مدفأة السلطان بالشلل، وأصبحت مجرد منظر فخم، لطاووس متصبر في مختبر، أو كرسي لعرش لسلطان يعلوه تاج مهيب!!.. ما العمل؟!. سأعيش إلى متى بانتظار زمن الانفراج؟!.

كنت أتهرب من البرد منذ ليالي الخريف الباردة، من صباحيات صقيعية، التي تتجمد فيها المياه، وتظل ألواحها المتكسرة طيلة النهار تهدد السائرين عليها بالانزلاق، وقد حل الشتاء ببرده القارص رمى بكل ثقله الظلامي وبلياليه

القاتمة السوداء والطويلة، الشديد، كما للبرد القاتل، وإذا سألتني عن القدر، فسأقول لك هو الحر والبرد، هو نار الصيف المحرقة، وزمهرير الشتاء البارد.

تسرني مصادقة حياة الملل والرتابة حتى اللانهاية.. كان لا يكره أحداً حقيقة، ولكن ما الداعي لأن يحب أحداً؟!. الأمر بسيط للغاية، فكر بشكل واثق للغاية، وحين عبر عن فكرته بشكل بسيط للغاية، وعلى النحو التالي: تقولين لي أين أصدقاؤك؟ ما أكثرهم؟!..

الأمر احتمالي للغاية، أولاً وأخيراً، فحين نبحث عن أبيض في أفريقيا، وعن أسود في أوروبا، سنكون كمن يبحث عن الصفر الشرق أوسطي.. ونحن في وسطه.

رغم أن العالم واسع بما فيه الدهشة، والغرابة، إلا أن ثم ضيق شديد، ورأي عنيد، ومهما بدا ساذجاً ومؤقتاً، فلا بد من الاعتراف بأن البؤس والشقاء والفقر هي أقدار مؤبدة.

اليوم، في هذا اليوم بالذات قرأت كتاب قصة الحقارة، وربما خرافة الصداقة من غير وعي وعلم أو هدف، ولكن لابد من قول شيء جديد؟!..

أسمعني أحد أعز أصدقائي حكمة تستحق التبجيل:

-: اليوم يا صديقي، لا أحد يساعد أحد..

قلت له ممازحاً

-: صدقت، ولكن لو قلت.. (قل هو اللّه أ حد)..

قال مستاء: هذا كلام جد..

قلت له بكل برود: - نعم جد وفوق الجد.. يكفي أن لا تضر أحداً..

حين انصرف متعللاً بانشغاله، شيعته بنظرة فقدان حزينة، على درب من صد ولن يرد، والى الأبد.. نعم، سنفترق، وليتنا ما كنا التقينا.. ورغم أني لم أتعود الشعور بالأسى، ولكنني أشفقت أسفاً عليه فقد كان صديقاً لي ذات يوم، وكنا قد توصلنا معاً في طفولة مغرورة، بأن الصديق ليس وقت الضيق فحسب، بل هو الأقرب من الأم والأب والشقيق.. يا لبؤس تلك الأفكار البلهاء!. يا لها من خيبة شنعاء!.

منزلي كالقبر المهجور الذي لا يمر بجانبه أحد، ولا تسمع منه أي صدى، بينما تسمع في قبري، عفواً منزلي،

أصوات ارتجاف من قشعريرة البرد وهو الأمر الذي لا يحدث بالصيف.

الأبواب المغلقة والظلام من الليالي الحالكة تجعلنا منعزلين ومنسيين عن كل من حولنا ، كم أحب الضياء والنور ، والفضاء الرحب فلا أحد يحب الحياة في جحر ، يكمن فيه كالحيوان في سبات عميق ، بانتظار تبدل القدر من أسوأ إلى سيء ، ولكنني أتساءل في كل مرة ، لماذا لا تكون هناك عدالة ، ووسطية في هذا القدر المسلط علينا بدون رحمة ، حيث لا توسط بين النار والجليد ، بين الاختناق الشديد بين الملابس الضيقة ، والتحلل من الأردية ، بين الظلام الدامس ، والضياء المبهر.

نسيت جوعي الحار ، لأن جسدي البارد ، أقولها للأسف ، بعد أن أوشك الشتاء على الانقضاء ، لقد صرت في هذه الأيام أحلم بالموت الدافئ ، لقد اعوج كل عضو في جسدي وتشوه ، من شدة التقلص والتشنج ، وحين أتألم من شدة الوجع ، أسمع المحسنين يعطفون علي حقاً بالقول:

دفئ نفسك يا رجل ، إنه البرد قاتله الله ، فالبرد سبب لكل علة..

لماذا يكون لمثلي أصلاً منزل يأوي إليه؟!.. خير لي أن أموت من أن أعيش..

أستطيع جمع قنطار من الحطب والقش في يوم واحد، لو كان في منزلي مدفأة حطب، فالحطب متوفر، فالأشجار المقطعة من بداية الخريف ملقاة في كل مكان، وهناك الكثير من القرم تنتظر من يحملها، كما يحمل الأغنياء اللحم بدون شحم، ولكنني أبصرها في الطريق وأتحسر لمنظرها ملقاة هكذا بفوضى، دون أن تمتد إليها أي يد، لقد صار الناس يعتبرونها طاقة غير نظيفة، فما الذي يهم؟!..

أنا فقير، وعندي منزل، وعندي مدفأة مازوت ومذهبة تلمع بحروفها الذهبية (السلطان)، ولكنها على ما يبدو ستظل مجرد حلية مذهبة، تبعث في النفس الشعور بالبرد، بل والبرد الشديد لمجرد رؤيتها، ولكن زوجتي تصر علينا بأن لا دفء سينبعث في هذا المنزل القاتم والمشبع بالبرد الشديد، بدون ثورة السلطان وناره، وهي نار مقدسة يبدو أنها لن تشتعل أبداً، إنها كالأمل اليائس الذي لن يتحقق طيلة قدر الشتاء.

ظلت المدفأة مجرد آنية مهملة، تشغل حيزاً صغيراً في زاوية إحدى الغرف تنظر بهزء نحونا متباهية بشكلها الأنيق للغاية، إنها تشبه اللوحة الصامتة، تلك اللوحة التي لا ألتفت إليها كثيرا، فلطالما كنت في شبابي الصغير والبعيد، أنظر إلى تلك اللوحات الصامتة لسلال الفواكه الفخمة ولا أعرف أسماءها، إلا من خلال الصور، وحينها أكون قد تضورت من الشعور بالجوع، وحين أمسك بالساندويتش فلا اشعر أبدا كيف التهمته بسرعة غريبة، وكأنني كنت أطارد تلك اللحظات بجوع غريزي لا يفنى أبداً؟!.

صرخت هذه المرة بيأس شديد:

يا زوجتي الحبيبة لقد قتلني البرد. فردت بكل بلاهة:

-: لك اللّه والسلطان يا حبيبي، صبر جميل..

حين ألومها قائلاً برفق:

-: يا زوجتي العزيزة، لماذا تركت السقف الأول؟ لماذا لم تنتظري قدوم اللحظة المناسبة؟ ريثما يتبدل الحظ.. اعترفي بأنك قد تصرفت كيائسة..

لقد بدت لي كلوحة صامتة، لولا أنها تتكلم... تتضرع ولكن بدون اعتراف صادق:

-: سيوفقك الله، وستحصل بإذن الله على ثمن المازوت وستعرف بحق من هو السلطان.. لا شيء يدوم ولا شيء سيبقى على حاله.. فالدفء هو السلطان..

-: يا عزيزتي، السلطان الحقيقي هو الزمان والمكان، فسلطانك زائف..

كانت مخلصة فيما قالته لي، ولكنني شعرت بالاشمئزاز من الموت القريب، وحينها ستبكي كثيراً، لأن لا سلطان مطلقاً سيتكلم، عن سوى القدر، بين لهيب الصيف، وجليد الشتاء..

الأشهر التي مضت، والسلطان مجرد قطعة أثاث في منزل، فلماذا كل تلك الثقة الغريبة والأمل بالدفء القادم من وراء قطعة باردة اسمها السلطان، بينما القرم مهملة ومجانية بل وتدعوني في لحظات فقري المستديم كي ألتقطها، وأحملها إلى البيت البارد بحكم الفقر والقدر.

كان إصرارها أبدياً، ففي منزلها القاتل لن يحدث شيء بدون علمها، وبدون رغبتها، في الحصول على الطاقة النظيفة بدون فحم، وأكل اللحم الصافي بدون شحم.!.

أشهر مضت ولكن مدفأة السلطان ظلت عارية، بل وخاوية من كل طاقة، فبدون مازوت لن تشتعل أبداً، أبداً.. لقد كان لون جسمها الزيتي الغامق، لوحده، يكفي لانبعاث أشعة جليد لا يذوب أبداً.. حتى الخطوط الذهبية النافرة، توحي لناظرها بمنظر الجليد، بل ويستنتج العقل السليم بأن الذهب ذاته والسلطان، بدون حياة، بدون دفء، فالذهب معدن بارد للغاية، لا روح فيه ولا دفء، ومن الأفضل لكل السلاطين أن يتخلصوا منه، لأنه لا خير فيه، ولا دفء يصدر عنه؟!.

أنا هو أنا؟!.. يا للغرابة!!.. أيام قليلة تفصلنا عن رأس السنة الميلادية!..

زرت اليوم بيت أهلي، بعد انقطاع وهجران، حيث الباب الخارجي والداخلي، مشرعان ومفتوحان بانتظار قدوم أحدنا، وكالعادة قديماً فقد وجدت أبي ملتفاً

بفروته الصوفية، نفس تلك الفروة التي غمرتني بالدفء عندما كنت صغيراً.

كان أول أسئلته لي:

-: هل دفأت بيتكم من أجل الأولاد؟.. أظن أنك وفرت ثمن المازوت هذا العام؟..

اللا (الخفية) والتي صارت نعم لكل الأسئلة، لم يقتنع بها، فراح يحاول إقناعي باستخدام الوقود الموجود بالحديقة الخلفية للمنزل، والمتبقي منذ الشتاء الماضي، وأن أحداً لن يستخدمه، فهو لا يحب التدفئة، لأنها تفقد الإنسان حيويته، وتنسيه الطبيعة من حوله وبأنه من جيل قوي البنية، يتحمل برودة الشتاء وسخونة الصيف، فلم أخرج خاوياً من بيته، ولكنني خرجت حزيناً من أجله وفرحاً من أجل أولادي، في آن واحد معاً، أشعر بالخجل من نفسي وبالرضا عن أبي، فقد اقتضى التقشف أن لا أدفأ أنا وأبي.!.. إلى متى!!..

كل الملابس العتيقة منذ سنوات بعيدة لم تنقذني من حالة الشعور بالبرد المميت، ولن أنسى أبداً كيف كنا نحفظ قوالب الثلج الحقير وسط أكوام الخيش

والجنفصان، ولقد قررت أن أذيب كل قوالب الثلج في الصيف أو القدر القادم، وفجأة، رن جرس الهاتف، بقيت مذهولاً لأول وهلة، كمن يتحقق عن مصدر الرنين، لعله ليس هو، نعم عندنا يرن بين فصل وآخر!!.

انه هو لأنني ما إن رفعته حتى سمعت نداء يقول وبدون تحية:

-: احضر إلى بيت أهلك فوراً، فالمحاسب ينتظرك!!.

خلال دقائق من الطيران والوثب، كنت قد حلقت عالياً في الفضاء، نحو البيت العتيق، بيت الرحمة والشفقة، بيت الأجداد والآباء، لا بيت السلطان والأصدقاء.

كان والدي ينتظرني عند الباب الخارجي، كان يقف منحنياً ويضع يده على خاصرته، ومتكئاً على عكاز غليظ، يقرع به على الأرض، وفور وصولي قال معاتباً:

-: أين أنت؟.. لقد تأخرت.. هيا ادخل.

سار أمامي، فرحت أتأمل بياض خصلات شعره الثلجية البياض فقد كان حاسر الرأس..

في بهو المنزل، لمحته وهو يجلس بطريقة متكلفة وهو يلف رجلاً على رجل، ويرتدي بذلة رسمية سوداء، وربطة عنق غليظة، يرشف فنجان القهوة وينفث الدخان بفوضوية ونزق، وكأنه يحسب تكاليف مشروع كبير.

-: أستاذ هذا هو ابني.. إنه كما تعلم..

كان أبي يبتسم في وجهه فرحاً

-: تفضل.. هنا.. وقع هنا..

ثم جذب حقيبته السوداء، وفتحها بخفة، كانت ممتلئة بربطات النقود، كان منظر النقود دافئاً، وبخاصة عندما تراقصت أصابعه، وهي تقلب الأوراق بسرعة موجية كبيرة، لقد استغرق في عدها وقتاً وكأنه زمن حلم سعيد، وحين توقف فجأة.. دفع ربطات النقود نحوي، ارتبكت كثيراً لملمس النقود، شعرت وكأنني طفل يقف أمام معلم الحساب وعند السبورة، وهو يطلب مني حل تمرين معقد، كيف أعتذر وأتهرب، فقد طلب مني أن أعدها لأتأكد.

لاحظ ارتباكي، فأسعفني بالقول:

-: احسبها، هذا من حقك.. واجب بل وسنة حسنة..

أنقذني أبي كعادته، وهو يحسم الأمر مسروراً:

-: تمام يا ابني.. عملك متقن.. اشرب القهوة..

حين خرج المحاسب مودعاً بحفاوة بالغة من الشيخ، لم أكن اصدق أن ما جرى كان حقيقة!..

حين عاد أبي ليجلس بتراخ عجوز على فراشه، وقبل أن يثني العكاز، ألقيت بالنقود في حجره وما أن أحس بها حتى صرخ بي بأبوية غاضبة:

-: خذها يا بني.. هذه نقودك وهي حصتك من المرحومة أمك.. اصرفها بشكل معقول.. كن مسؤولاً..

قلت له بحزم: - خذ منها ما تشاء، وأعطني بعض المصروف..

أقسم أن لا يأخذ شيئاً، وراح يوصيني بأن لا أقصر بالمصروف على الأولاد، وبأن أكون سخياً في شراء الوقود وتدفئة المنزل.. لا أدري كيف ودعت والدي.. لم أفق من الحلم بعد.. كيف انتهت معاناتي الطويلة هكذا بكل بساطة، كيف سأتحرر بسهولة من عبودية اليأس القاتل، والأفكار السوداوية التي تلبسني في نوبات لا تنقضي، لقد صارت جزءاً من كياني الثقيل.!!..

كيف سأعود إلى المنزل؟!. كيف سيكون منظر زوجتي والأولاد، حين أعود إليهم هذه المرة، على ظهر سيارة مازوت، وبرميل مازوت.. نعم برميل.. وأشياء أخرى.

للمرة الأولى ارتفع المؤشر، شيء كالإصبع ارتفع حلل الشحوب البارز، وهو ما جعل زوجتي الغنية تضحك وتبتسم وتوزع البسمات في كل الاتجاهات، نعم لقد حانت لحظات الدفء..

حين قلت لها مستعطفاً:

-: أنا لا أريد أي لحظة دفء الآن.. أرجوك افهميني..

قالت وهي مستغربة:

-: هذا لا يمكن أن يكون أبداً.. ألم تشبع من الانجماد بعد؟! الآن يمكنك أن تعرف من هو السلطان.

إن له فعلاً عجيباً..

قلت لها بحزم: - أما اليوم فلا.. غداً.. غداً..

تركتني مستغربة وهاربة من منظر غرفتي الجامدة من البرد، وعلى الفور ارتديت فروة الصوف الرعيانية، ورحت أقاوم شيئاً فشيئاً ذلك اليأس الكاذب والعتيق ،

مستعيناً بقوى الأمل الفتية، وكانت ليلة للفرح والسرور مع خيط أسود من الحزن الخفي.

مع طلوع الفجر خرجت قاصداً المقبرة، فهناك الدفء الحقيقي، الدفء الدائم، حيث ترقد أمي بسلام وسكينة، وهناك عادت تراودني صور وذكريات، حين كانت أمي تطعمنا جميعاً وتدفئنا جميعاً، حتى حين يبدو في الأفق شبح الحكمة الفاسدة: لا أحد سيساعد أحد؟!..

حين عدت إلى البيت، محملاً بوصية أبي، كي أكون سخياً مع أحفاده، لنفرك أذن السلطان، حتى تحمر من الدفء، ليهب ويلب ناره، ويستعر جحيمه، سنملأ جوفه حتى يفيض ويترع، فسيكون العام القادم جديداً حقاً، وفاتحة لحياة جديدة، وقبل فوات الأوان.

قصة صمت وديع

حين ودعته زوجته الشابة الصغيرة، كانت غاضبة منه، لأن تصرفه بدا غريباً، لقد كان منظره بائساً، فلحيته الكثة، أظهرته على غير عادته كشخص يائس، كما أنه كان صامتاً وقليل الكلام، حين ودعها بجفاء بالغ، فلم تشعر بصدق مشاعره وهو يقبل صغيره، فقد كانت حرارة الصيف واحتراق المازوت، ولهيب المجهول الذي يحدثه السفر، يختلط مع صوت المحركات، فبعد قليل سيحدث فراغ كبير ومطلق سببه، سفر وعودة الناس إلى أهاليهم فيما سبق أو مضى، وهذا ما حدث بالفعل، مع عمر أبو حسين، وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ليلاً، وحين اختفت الحافلة التي تقل زوجته وولده الصغير، أحس لحظتها بالفراغ العظيم، وهو شعور لا يقل بدرجته عن الشعور بموت الأحبة.

الندم الذي طغى على كل كيانه، أظهره كما لو كان أبخل شخص في هذا الكون، فماذا لو كان قد أفرغ كل النقود التي في جيبه، وأهداها إلى زوجته الجميلة، فقد كانت تحاضن ولدها بشكل ملائكي وديع، وكان لا يصمت أو ينام بدعة إلا في أحضانها، وهو منظر يستحق الانفعال الصادق، لولا أنها كانت قد أهملته وهي تستعد للسفر في الأيام الأخيرة.

-: سيمضي الشهر سريعاً كالبرق.. غمض.. فتح، ستجدني هنا أمامك..

كان غاضباً منها، لأنه مجرد رجل وهي امرأة، ولم تكن كذلك كما هو يحب ويشتهي أن يراها كذلك، لقد كانت متعلقة بأهلها، بأفراحهم وأحزانهم، وهاهي تتركه من أجل أن تكتب تاريخها الخاص، وهذا ما رفضه هو منذ اللحظة التي فكرت هي، أن تسافر، فقد صار يتصور أنه ليس كل شيء في كيانها، ووجودها، بل مجرد شيء ثانوي في حياتها.

كما تنطفئ أضواء الاحتفال في مسرح كبير، صارت المحطة موحشة، منتصف الليل..

-: لن أعود إلى البيت الموحش أبداً.. أبداً..

فكر قليلاً وكان يسير على غير هدى، حتى أنه سار في الطريق المعاكس لبيته القريب، نحو نهر الفرات الهادئ، اجتاز الممر الضيق فوق الجسر العتيق، وهناك أحس بالجو المنعش واشتم رائحة أشجار (الغرب)، وأحس بالنسيم الرطب، واستمع لموشحات النهر وهو يخفق بين الحصى، والأسماك وهي تقفز من حين لآخر.

لقد سافرت من هنا، بينما قرر هو السفر بعكس الاتجاه، ففي حين سافرت هي نحو أهلها، فقد قرر عمر أبو حسين السفر نحو جهة مجهولة، كانت فيما مضى محطة حياة، تضخ الفرح والتسلية، والنسيان، فهذه هي المرة الأولى التي سيعيش فيها وحيداً، فالليلة الأولى لن تنقضي أبداً، وأمامه الآن دهر من اللحظات الصاخبة، بل غابة من الوحشة، حيث لن ينفعه أبداً سوى الهروب، فإذا كان المستقبل مجهولاً، ولا يمكن فهمه فلابد من الهروب نحو الماضي، وحيث كان حراً لوحده، يغيب أو يحضر كما يشاء هو أو كما تلقي به النزوات العابرة، لم يتردد كثيراً، ولم يكلف نفسه جهد العودة للمنزل،

خوفاً من الفراغ الفظيع للصمت، ومن ذكريات قريبة ستجعله مجرد كائن حي في متحف للتاريخ الطبيعي.

كان صدره منقبضاً، ومثقلاً من الأسى واليأس، ولعدة أيام مضت، وكان يجتاحه شيء من الخوف الخفي، حتى أن الليلة الأخيرة، هاجمه أثناء النوم كابوس مقيت، وكأن ثعباناً ضخماً مرقطاً التف حوله وشرع يكسر أضلاعه ببطء، وحين أشرع نابه ليطبق عليه بفكيه، حينها صرخت زوجته من الهلع، فصحا من نومه والعرق يتصبب من صدره وعنقه.

إنه بحاجة ماسة للاسترخاء، ولكن الوحدة موحشة، وقف على جانب الطريق، وفجأة توقفت سيارة أجرة، فمضت به إلى أحد ملاهي الليل، فما أن سمع صوت الموسيقى الصاخبة، حتى سرت نشوة قديمة في عروقه، حين عادت به الذكريات لأيام خلت، برفقة أصدقائه المرحين، ولحظات الفرح الشبابية، وصار يتوقع أن يجدهم هنا، كعادتهم أيام زمان.

تأمل الوجوه هنا وهناك، فلم يجد أحداً يعرفه، فقال في نفسه، سيأتون بعد قليل، فالليل طويل، كانت

أضـواء الملـهى تخفـت حينـاً ثـم تـبرق، جلـس في ركـن منعـزل، جعـل ظهـره نحـو الحـائط وراح يتأمـل الوجـوه والأجساد المغرية للنساء، وهن يصافحنه بغنج واحدة تلو الأخـرى، وشـيئاً فـشيئاً صـار يحـس بالتفاعـل مـع الجـو الصاخب ويتوهم المكان أليفاً.

كـان يـشرب بـنهم عطـشان، ويـدخن بـشراهة مـرة، وحين لاحظ وحدته صاحب الملهى، دفع نحوه بواحـدة مـن النساء اللاعبات، لتتقرب منه وتصطاده، كـان حـذراً في البداية، وعيونـه متعلقـة بكـأسـه الـذي مـا أن يفـرغ حتـى يـدفع إليـه بـآخر، كـانـت جميلـة وتـشبه زوجتـه، ولـذلك فقد نفر منها، وكان يمني نفسه بالصمود ريثما يـأتي الأصـدقاء، فالحـائط الـذي خلفـه لـن يكفـي ليصد عنـه هجمـات أجساد الغواية، فلـن يكـون فريسة سهلة، ولم يأت أحد.

وأخيراً علق بشباك إحداهن.. لانت له ومال إليها، ثم صـارت تـرقص حولـه وتظهـر مفاتنهـا، أخـذت تقـترب منـه شـيئاً فـشيئاً، ثـم راحـت تـضمه سـريعاً، وتقبلـه بـشكل خـاطف، فتحركـت روحـه قلـيلاً، فـصار كـريمـاً معهـا،

كما لم يكن مع زوجته في اللحظات الأخيرة من وداعها، من يدري لماذا؟!.. لا أحد..

التحية مفردة غريبة، وتكلف مبالغ طائلة، فالمغني سيتوقف عن الغناء، ويقف إلى جانبهما، وكل الأنظار ستتجه نحوهما، هو وقمر الزمان، وسيتوقف الراقصون بانتظار عودة الحيوية إلى أجسادهم المنتشية من الرقص الهستيري، وحتى صاحب المحل سيشنف آذانه وسينهق كالحمار، فالمرعى كله حشيش أخضر.. ويصدح المغني:

- إلى أحلى قمر، قمر.. وفقط قمر.. من أبو حسين إلى الغالية قمر.. قمر.. قمر..

وحين يلقي بالورقة النقدية التي تكفي لإرسال أطول رسالة بالعالم، نحو أبعد بلدة في آخر قارات العالم، ينصرف المغني هارباً بخفة النمس، نحو فريسة أخرى.

كان المغني المربع القامة، يجعر من حين لآخر، ينعي الأحبة والأصدقاء كأنهم ماتوا اليوم، ويتهم العصر بقلة الإخلاص والوفاء، وتارة يصور الحاضر بأنه لا يستحق أن يعاش، فالماضي ضحية للحاضر، فلابد من

الموت على صدر عشيقة، ثم يبدأ بالعربدة والطرب وكأن حياة اللحظة الراهنة فيها تتلخص كل السعادة.

عدة ساعات مرت، كانت فيها الفاتنة قمر، قمر الليلة الموحشة، حتى أصبحت موضع إعجاب صاحب المحل والمغني البائس، وعازف الأورغ النشاز في إيقاعاته، ومصاحبته البعيدة لصياح المغني، حتى أن الطبال سرت فيه الحماسة، وراح يطبل مسروراً.

- أحلى قمر.. قمر وفقط قمر.. الحلوة قمر..

مرات ومرات، ثم صار الحبيبان يتعانقان، ويرقصان معاً، فقد ترك أبو حسين الحائط، فلم يعد خلفه، بل لم يعد بحاجة للأصدقاء، فسيان عنده الآن إن حضروا أو غابوا، فهو الآن بين أهله وأحبائه، فكل جميلة هنا تتمنى أن تراقصه وتضمه، بل وتنام في حضنه، حتى أن صاحب الملهى كان ينظر إليه بإعجاب كبير، وها هو يجلس إلى طاولته، والجميع يرقص من حوله فرحاً بتحياته الكريمة الموجهة إلى قمر وكل الجميلات.

لا شــيء إلا وينفـذ ، البئـر والنهـر وحتـى البحـر ، إذا تـسلط عليـه مـن لا يرتـوي أبـداً ، ويكـف عـن الـرقص الهستيري ، فالتحيات والتقديرات لن تتوقف أبداً.

تجمعـت الحـسان ثـم افترقـن ، ثـم عـدن مـن جديـد ، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحا ، حين جاءت مجموعة من الرجال ، كانوا كعصابة من قطاع الطرق ، وحين جلسوا تغير كل شيء ، فقد كان من بينهم شيخ ، وشيخ لا يبدو ضئيلاً ، فانقلبت التحية إلى الشيخ عن طريق أزلامه وتابعيه ، لقد جاء شهريار ، وكفت قمر الزمان عن التحية المباحة ، وعاد أبو حسين إلى كرسيه المسنود إلى الحائط ، ولم يأت أي صديق.

كل لحظة فرح كاذبة مرت منذ قليل ، صارت مصدر عذاب كبير ، فتلك قمر ، وفقط قمر هي من يرقص حول العجل الذهبي ، ألا وهو الشيخ ، والشيخ لا يحرك ساكناً ، فالتحية هذه المرة للشيخ وحده ، بينما كانت قمر ترقص بهستيريا حول الشيخ ، تعانقه ولا يستجيب ، بل ويدفعها الحراس من حوله ، ثم يكتفي بالإشارة لهم كي يدعوها تظهر كل مفاتنها ، وتجرب

كل وسائلها بالإغراء، فقد كانت مجرد ابتسامة منه، تكفي لجعل الجميع يرقص طرباً.

كان أبو حسين يشعر ببقية من وعيه، أن قمر الزمان هي أكبر خائنة له في العصر الحديث، فقد أحبها بصدق وإخلاص، وأنفق الكثير من أجل تحيتها، ولكنها خانته بكل صفاقة ووقاحة، نعم، قمر خائنة، فلم تعد تلتفت إليه، أو تفكر ولو للحظة بمداراته ولو كذباً، عندها سيتصرف كشيخ، حتى لو كان وحيداً و بدون أصدقاء، وحتى أزلام؟!.

لحظتها دفعه الشعور بالخيبة والإحباط للخروج من الملهى الليلي، ومغادرته إلى الأبد، فخرج ناقماً معبراً عن سخطه بصوت ناقم، وبدون أي تحية، فلم يعد هناك أي قمر في ليله البهيم المظلم، ولكن صاحب الملهى كان قد لاحظ مقدار خيبته، فترصد لحظة خروجه، فأعاده بكل سهولة ويسر، ربما كان أحد أصدقائه؟!.

عاد أبو حسين من جديد إلى نفس المكان، وتجددت الطاولة بأمر منه، وعادت قمر بالرغم عنها لترقص حوله، كتمثال من الشمع، وكجسد من غير روح، ثم

راح صاحب المحل ينفخ في قربة مقطوعة، أو يرسل التحيات بالنيابة عن قمر وأبو حسين، كأحلى حبيبين، ويلقي بالدراهم العائدة إلى صندوق بريده، من جديد، ولأن المشاعر كاذبة حقاً، فقد عاد أبو حسين من جديد ينظر إلى كأسه ناعساً ويشرب بنهم، وحين قام من كرسيه خرج وبنفسه أن لا يعود ثانية إلى كرسيه المستند إلى الحائط، فقد صار الطريق فيما بين الحقول المجاورة للنهر الفرات، أكثر حميمية من الملهى الصاخب، من التحيات المزيفة والمرسلة إلى العناوين الخاطئة بشكل مقيت، يبعث على التقزز والنفور.

إنه الآن بحاجة إلى المشي مع ظلمة الفجر، مع النسمات الباردة، فدمه ساخن وفي كل خلية من جسمه تنبعث أشعة حارة، وهي لن تبرد، ما لم يشرب من ماء الفرات العذب، بل ويغطس بكل جسمه في مياهه الرقراقة.

وصل إلى المكان الذي انطلق منه، ثم عرج نحو شجيرات الغرب، لم يشعر بالخشية من الظلام، فقد كان كل شيء يمضي بسلام ودعة، كان المكان بين

الشجر مرتفعاً فنزل بحذر شديد ، وحين اقترب من الماء ، دخل فيه ، كان الماء ينساب مابين الحصى ويترقرق ، ورائحة أشجار الغرب نفاذة وسامة كرائحة قمر الزمان ، وتحيتها مكلفة وباهظة الثمن ، كان ينام حيناً على الحصى ، يبترد قليلا ، فيحس بقسوة الأرض ، وحين يتذكر الوداع القديم مع زوجته وولده ، تعود إلى شاشة ذاكرته من جديد صورة قمر ، وهي تشكل كسوفاً عظيماً لهذه الليلة الموشكة على الانقضاء ، مشى قليلاً في مسبح النهر غير العميق ، وقبل أن يخرج منه مغادراً نحو بيته ، ومع الخيط الأول للضياء ، رفع رأسه فرأى ثعباناً أرقط ، ثعبان ليلة الوداع المزدوج ، وكان يوشك على الانقضاض عليه ، لولا أنه مشى بعيداً عنه ، ولكن ليستقر في فم النهر المفتوح كهاوية بلا قرار ، فوجد نفسه يحيي الأحبة ، وبخاصة زوجته وولده بكرم شديد ، ولكن بدون صخب ، وبدون مغني ، وبدون قمر ، والنهار على وشك الطلوع ، كان يحيي بصمت وديع ، ويلقي بآخر وأغلى أوراقه الحية في جوف النهر البليد.

عند حواف الموت

لو كنت قد سلكت طريقة لحياتي، غير تلك التي انقضت أثناء وجودي بالسجن، كما لو كنت خارجه، لكنت اليوم أفضل حالاً من قبل، ولكنني بدوت كشخص مقلوب الحال، ففي حين كان من المفروض علي وعلى غيري حالة البكاء، كنت أضحك ببلاهة، وغالباً ما أعبس أو أشعر بالنكد وهم يقبضون بصعوبة على لحظات فرح عابرة ولكنها سخية، وكأنني رسمت لنفسي صيغة جملة اعتراضية تمنع السلاسة في سرد الحكاية القصيرة.

في سنوات السجن، فكرت بحماية نفسي، ولكن بشكل مبالغ به، حيث اعتقدت بأن حياة الجوار المنفتح على مجموعة من السجناء اليائسين من قدوم لحظات الحرية، سيعني أن تلتهمني نيران عدوى اليأس القاتل، فستحرقني معها وستلقيني هشيماً، وبقايا رماد محترق،

ولذلك قررت الانغلاق على نفسي، حتى لحظة قدوم حياة الحرية، ومن ثم الانطلاق بكل حيوية نحو الآخرين.

لم يخامر نـي الشك ولو للحظات، ولذلك بقيت أعيش سنوات السجن الطويلة، بشكل هامشي، ولم يفارقني الشعور الحاد، بضرورة الحفاظ على طاقاتي الكامنة، من أجل أن تكون حياة الحرية التي أحياها في يوم من الأيام، حافلة بالحيوية بل وموغلة بالروح الاجتماعية، وكانت خدعتي كبيرة للغاية، فقد اكتشفت بشكل فج ومؤلم، مقدار خسارتي الماحقة، لتجربة زاخرة، وقد كان من الممكن لها أن تعلمني بقوة: كيف أنتبه لما يحيطني كالخاتم، وكيف أنجح بقوة في تلك التجربة، ولكي أتعود بصراحة على النجاح دوماً، أينما كانت الظروف.

كل عملية انعزال عن الواقع، ليست مصاعب في عملية الاندماج فحسب، بل هي أزمان موت حقيقي، وهي أسلوب اختياري للحكم بالانعدام، بكل برودة أعصاب، ومن الغريب حقاً أن يحدث ذلك بشكل اختياري؟!.

لم يكن المجتمع الموجود بالسجن، مسجوناً في حقيقة الأمر، بل كان معزولاً بطريقة ما يصعب وصفها، فالمفاجأة التي وقعت لي حين اكتشفت، أن لا حرية خارج السجن، بل داخله إلى حد ما، وهو من الأمور المقلوبة، وكانت المفارقة أن مشاعر اليأس التي أعيشها في سنوات خارج السجن أشد قسوة من كل مراحل حياتي، فاليأس الحقيقي اصطدمت به كجدار أصم حينما انزلقت خطواتي بين الأهل والجيران وأصدقاء الطفولة.

لقد وجدت ولا أملك إلا أن أصرخ مفجعاً، في كل الأحوال عند الصحو وعند النوم، في الفرح والحزن (يا ويلاه)، أو كما يقال بالتركية (ليلم ليه)، ولذلك أجد أن من واجبي الاعتراف، بأن معظم السجناء الأشد يأساً من كل أنواع الرحمة، كانوا أحسن حالاً مني بعد خروجهم من السجن المرير، وكأن السجن قد كان مدرسة لهم، بل وجسراً سيعبرون عليه لتحقيق النجاح لمستقبل أفضل، بينما لم أجد لنفسي من معبر سوى أن ألقي بنفسي في خضم النهر الكبير، لعل في الغرق نجاة

وحياة، وصرت أتخبط منتشياً بخلاصي القريب كما تخيلته في لحظات الوهم القاتل، ولم أقدر على التقدم سوى خطوات قليلة من عبور النهر نحو الضفة الأخرى، لقد شعرت بأنني سأكون سعيداً من عزلتي ووحدتي الأخيرة، فقد عدوت بسرعة نحو النهر، وما هي إلا لحظات فرح طفولي، سرعان ما وقعت أسيرة لشباك جدية الكهول، وذلك حين امتدت قبضة قوية، أمسكتني بقوة صياد، وأعادتني إلى سلة الصياد، كسمكة هاربة للتو.

ما أكثر الأسئلة، ولكن ما أقل الأجوبة؟!.. والأكثر منها المفارقات التي تختلط فيها الأسئلة بالأجوبة؟!..

أتساءل أحياناً عن معنى أن لا يقبل الناس مجرد وجودي بينهم، في حين أنهم لا يسمحون لي أن أغادرهم بعيدا عن حياتهم، سواء بسواء أن أعيش وحيداً، أو أموت بعيداً؟!.

أغنية الشيطان

يحكى أن شيطاناً مسكيناً كان قد ترافق مع إنسان لعين، في عبور مفازة طويلة، وكانت خالية من وسائط النقل القديم والحديث، كانت المسافة تتعدى الألف ميل، ولا أحد يدري كيف استطاع ذلك الإنسان أن يقنع الشيطان، بلزوم أن يحمل أحدهما الآخر على كتفيه، ويغني له، كيفما يريد، وعلى هواه، لتخف وطأة الشعور بثقل الزمن والامتداد الشاسع للمكان، على مبدأ: احملني مرة وأحملك أخرى حتى نصل إلى الهدف المنشود بكل سهولة ويسر.

لماذا تطوع الإنسان كي يبادر ويحمل الشيطان على كتفيه بكل فرح وسرور، بل ويصبر على حمله لمائة ميل، وبدون أدنى استمتاع بتلك اللحظات المطربة لأغاني

الشيطان، من الهمهمة والدمدمة، ومن الجعير والزحير، حتى امتلأ صدر الشيطان من الملل، وكل من الاستراحة، فقرر النزول برحابة صدر، وبكل فرح حمل الإنسان على كتفيه، وراح يجري به وهو منتشياً جذلان، وراح يستمع إليه من حين لآخر.

في المائة ميل الأولى، كان يغني (يا ليلي.. يا ليلي... يا ليل)، وفي المائة ميل الثانية (يا عيني.. يا عيني..يا عين)، وفي المائة ميل الثالثة، (ويلي.. ويلي.. يا ويل..)، وهكذا حتى انتهت رحلة الألف ميل، أشرف فيها الشيطان على الهلاك، من طول الأغاني وقلة المعاني، ولم يكد يستريح، فراح يخاطب الإنسان وهو يلهث من شدة الإعياء:

-: لم أكن أعلم بأن أغنية الشيطان أقصر بكثير من أغنية الإنسان..؟!.

عند ذلك أجابه الإنسان بلؤم شديد:

-: أنا لم أغنِّ بعد، إن كل ما سمعته لم يكن سوى مقدمات، فاشكر العناية الإلهية لأن طريق المفازة كان قصيراً..

مجرد حلم

هذا ما يحدث دائماً!؟. نعم، فما أن أقف على شاطئ نهر الفرات حتى تتملكني أحاسيس غريبة، فرغم الهدوء فثم ثورة عاصفة، تسري من حولي، لعله منعكسا في خفق المياه، أو من تلاطم أمواجه من حين لآخر، فأتساءل: حقاً، لماذا أستغرق ساهماً، شارداً من القلق، وخلال ثوان من تأمل الأضواء المنعكسة على مراياه الكبيرة، فكرت بعمق، في أن النهر العتيق دائم الجريان، ومياهه تتجدد باستمرار، ولكن وهو الأهم فالنهر ليس متصلاً، بل ومتباعد، وفي التناقض الظاهري تكمن ثورة قلقي الأبدي، من هذا الجفاء، وقلة الوفاء بين النهر والحياة.

حين شعرت بالعطش، رحت أهيل الماء على رأسي، لأغتسل به أولاً ثم أعمد نفسي بمائه الرهيب، ذي الأسرار العميقة، والثورة الخفية، أرشق ماءه بشكل عشوائي، ثم أشرب منه، وأعود لأسأل نفسي بشكل جاد: هل بقي النهر على حاله، هل مازال قادراً على ري عطشي المفجوع، واللاتاريخي، وهل ما زال النهر الفرات مقدساً في حلوان طعمه، كما شاء الرب صانعه، حين يسقي العطشى الصالحين الماء فراتاً؟..

خمسون عاماً مضت منذ أن جرفني النهر المقدس، وكان حينها هائجاً وثائراً، يلطم كل شيء بقوة عمياء، لا تفرق بين الحصى والبشر والشجر، وحينها أشربني مقدار برميل من مائه، ولم أكن حينها بعيراً يقطع المفازة الطويلة أو حصاناً على وشك نيل قصب السبق ، بل مجرد طفل صغير، فاختنقت شبه ميت من مياهه التي تقطع الأنفاس، كالسكاكين الحادة ولكنها مصنوعة بطراوة بالغة ورهيفة، ولكن من غير معدن صلب.!.. نهر الفرات الصلف والجامح أغرقني، ضمني بقسوة إسوارة جارفة، وسره أن تكون مقاومتي صغيرة

وتافهـة،وكـأنني مـسرور بعناقـه الفـظ، حيـث سـقطت بسهولة ويسر كـل أشـكال مقـاومتي الغريزيـة، ـ في حـب البقـاء بعيـداً عـن الحـب القاتـل، الـذي عـادة مـا يحـدث عنـدما لا تـكـون المشـاعر متبادلـة، أي مـن همجيـة الحـب ولكن من طرف واحد؟!..

لقـد غـرر بـي وأقـنعني بـأن حبـه اللاتـاريخي جميـل، وناعم للغاية، وبـأن كـل أنـواع التربـة تـشتاق إليـه، وكـل رسـوم الطين،وأوحـى لـي بـصوته الهـادر والبعيـد، في لحظـات تحولـت إلى مجموعـة مـن العـصور وحتـى الـدهر نفسه،فأوشك الـضوء أن ينطفـئ، يخبـو البريـق المتلامـع بشكل أخاذ،وعمـا قريـب سـتنغلق شاشـة رؤيـتي، لأذوب في جـسد النهـر، وأتمـاهى، لـولا أنـني أحسسـت بيـد تنتشلني بقوة فاقت فظاظة عشق النهر، الذي بقـي أصـغر بكثير من ندى الأرض النائية عنه، ولحظة شـعرت بـأنني لم أمت بعد، وكنت قد تصورت العـالم بأسـره بحـراً مـن مـاء، فكـل الفـضاء والعـالم لـيس سـوى بحـر أو محـيط متلاطم من المـاء، فالفـضاء مـاء والـسماء مـاء، واللانهايـة مجـرد ثـورة مـاء، رغـم أنـني مختنـق بـين الحيـاة والمـوت،

وكانت لحظة الوصول إلى البر حاسمة، ونقطة افتراق حيث أحسست به يركض بلهفة بالغة، مزدرياً مياه الحياة الخالدة، مثله مثل أي سارق خبز حار ليطفئ جوعه الشديد، وكانت الكلاب التي طاردته لأول مرة، هي كلاب سوق، لقد كانت قبضته القاسية هي بذاتها لحظة حياة حنونة، حين سمعته ينفث من صدره لهث حصان جامح، حين توقف فجأة عند الحد الفاصل، فيما بين الموت والحياة، كان يرفعني بيديه، وكأنني قربان يقدم نحو آلهة كافرة، معادية للبشرية، لينقلني نحو الغربة البعيدة، والبعيدة جداً عن المحيط المتلاطم للماء،وحين لامست قدماه الرمل الجمر، كان يرفعني مقلوبا، فقدماي نحو الأعلى ورأسي نحو الأسفل، وكان قد قاوم بقوة كي لا يقع، فتلولحت بين يديه كغسيل منشور، كرداء شفاف سريع الجفاف، فراح الماء ينفر من كل أنحاء جسدي وخلاياي، وفجأة خف وزني، وعندها ألقاني على فراش الرمل الحارق، وحينها شعرت بحرارة الموت على سفوح الكثبان الرملية، ولحظتها بدأت أشتاق للموت البارد وسط المياه الجارفة والمتلاطمة

بفوضى الثورة والجريان، بل والهدير الأبدي الخالد..

أنا الآن حي، لم أمت بعد، لست أفهم بعد، ما معنى أن أشعر بالأسى أو بالفرح، لقد شعرت بالصدفة بأن الموت غرقاً كان فعلاً رحيماً للغاية، رغم حرقة الماء الذي يطفر من أنفي لحظة نشر جسدي على الهواء، كان منقذي يقاوم المستحيل المائي، ليحرمه حق ابتلاعي بشكل أبله، حيث لا يوجد أي حق لي بأن أغرق وأموت بالصدفة، ومهما كان النهر الثائر عظيماً في سخطه ونزوئيته، لقد انتزعني بقوة ومهارة صياد، من الابتلاع الأخير، ومن فوهة النهر القرش، هو هذا النهر المتواضع بشكل كاذب، هو ذاته نهر الفرات...

كان الجمع من حولي أكثر من عادي، ولكن منقذي وهو يصهل بشدة، كان قد فرقهم بهدوء، ومما أثار دهشتي وغرابتي أن يقودني نحو حافة الغرق ثانية، فأذكر أنه بسط يديه بثقة تامة، ثم صرخ متحدياً لحظات الموت:

- أيها البطل الصغير، لا تخشى الغرق، فأنا هنا، عم وأسبح واجعل النهر يائساً منك، فهو لن ينال منك

أبـداً ، بـل وحتـى حـين لا أكـون هنـا ، فهـذه هـي المـرة الأخيرة، فلا تخف مطلقاً..

لحظة نشرني فوق يديه المبسوطتين، وعاد ليخاطر بي هذه المرة كقربان لنهر الفرات، في هيئة تحد ولعب، وكأنه السباح الماهر يقول:

-: أيها النهر خذه مني إن استطعت..

فكرت مندهشاً ومستغرباً ثم تساءلت: هل يمكن لميت مثلي أن يتحدى موته، وهل سأحضر ثانية للقاء النهر المميت؟!..

قال بفرح شديد: - ستأتي ثانية، بدون خوف أو خشية، وستفعل ما تشاء، وبكل ثقة فقط كن واثقاً، لأننا من النهر وإلى النهر، وستعود ثانية وأبداً...

كنت أرفرف كالغسيل المنشور أتطاوح مع الريح، وشيئاً فشيئاً صرت أضرب الماء بقوة، وفجأة رأيت أنه يعوم بجانبي، وبكل هدوء، وبيسمة ظاهرة سمعته يشجعني:

-: مهلاً.. بهدوء.. السباحة لا تحتاج إلى جهد كبير..

إن منقذي هو الآن يسبح بجانبي كطوق أمان، فلماذا سأخاف؟.، إنني أسير لأول مرة وسط الماء، ولا أدري إن كان ذلك يشبه شعوري لحظة سرت لأول مرة على الأرض، الآن أسبح بحرية وجرأة..

هتف آمراً -: لنعد الآن.

حين خرجنا من الماء وسرت بجانبه على الرمل، كنت موازياً لخصره، حين أمرني قائلاً -: الآن ادفن نفسك بالرمل.

فعلت ذلك مسروراً، وخلال دقائق قليلة، شعرت بالقوة تسري في كل أنحاء جسمي، وصرت أشعر بنفسي كطائر قوي الجناح يقدر على الطيران في أعالي السماء الزرقاء، تلك التي أرها في قبري الرملي، فأنظر حينا إلى الغيوم البيضاء، وحيناً أنظر إليه يركض مندفعاً ثم ينقلب على يديه بدورة تامة، فيعود واقفاً، ثم أصدر الآمر الآخر: الآن قم.. اقفز مثلي دورة كاملة.. الرمل ناعم فلا تخش السقوط.. سأضع يدي خلف ظهرك لحظة الدوران.. هيا.

سقطت أكثر من مرة على الرمل، ولم أظهر أي شعور بالألم، خجلاً منه، وللمرة الأولى أتبين سحنته السمراء من شمس الصيف المحرقة، وكان يعلق بسخرية:

-: مازلت خائفاً، أليس كذلك؟..

حاولت كثيراً، وأخيراً صرت أتقلب في الفضاء، كررت ذلك عدة مرات..

ربت على رأسي برفق، ثم صاح بي

-: عد إلى النهر وحدك هذه المرة.

ركضت بقوة، وسبحت، وابتعدت عنه، ورأيته يلوح بيده من بعيد، أن عد، فرجعت متمهلاً وواثقاً، من النهر والرمل والفضاء.

حين افترقنا قال وهو راض:

-: بلغ تحياتي لأخيك يوسف، أظنه الآن مستغرقاً في مطالعة كتاب فلسفة، وهو يعرق من الحر الشديد، سألتقي به مساء.

ألقيت نحوه نظرة شكر ضخمة، لكنه تجاهل ذلك، قائلاً:

-: تعال وأسبح هنا، في نفس المكان، فلم يعد خطيراً، والعب الرياضة كما رأيتني أفعل.. ضحك ثم قال:

-: أما إذا أردت أن تصبح فيلسوفاً كأخيك فلن نراك هنا ثانية..

ثم حل المساء، وكنت فرحاً لأنني سر الفرات الهادر كان قد انكشف وانجلى أمامي، فلن يعود بعد اليوم رهيباً بالنسبة لي، ولا غامضاً رغم عنف ثورته، وإن كان كذلك حقاً، فإنني لن أخشاه أبداً، إنه ليس وحشاً، لقد صرت أحسه كالحمل الوديع..

فحين ناولته كأس الشاي المخدر، كنا فوق الجرداق، هتف مخاطباً الضيوف:

-: هذا هو البطل الصغير..

حين نمت على السطوح، وجدت نفسي مستغرقاً هذه المرة وليس غريقاً تلاعبني المياه، فأغب منها وأشرب، ثم أنفث ما بجوفي كحوت صغير، وكأنني شبل يزأر.

لا ، مثلي مثل أي سمكة تتقافز بين أمواجه..

....

عدت من غربتي الطويلة التي جاوزت عقوداً ثلاثة ، حين وقفت في ذات المكان، فاستغرقت ساهماً ، شارداً أسمع مياه النهر تخفق في إيقاع يشبه السيمفونيات التي يعزفها شوبان، بينما كان نهر الفرات يهدر بالماضي هديراً على إيقاع سيمفونيات بيتهوفن، لم يعد النهر جارفاً ، فاغراً فاه يبتلع كل ما يقف في طريقه، من مدن ومقابر وبساتين، لم أكن قادراً على النسيان... لقد نسيت أشياء كثيرة..

بينما كنت نائماً ازداد هدير النهر، ثم طاف، وراح يطم البساتين والسهول، فأحاط بالهضاب وشرعت أمواجه تلاطمها ، فابتلعني النهر هذه المرة بمودة وحنان، فتركني أسبح وألعب بين رغوة الشوكولا ، ومن ذلك الحلم اللاتاريخي والمتقطع، آمنت بأنني لست سوى سمكة منه، إن خرجت منه زمناً طويلاً ستموت.

حين قصدت النهر بعد اغتراب بعيد ، قصدته بنية أن أجدد روحي بين مياهه، كسمكة مهاجرة عادت إلى

وطنهـا الأول، وأن أسـبح وأسـبح حتـى أذكـره بنفـسي، ولـكنني فوجئـت حقـاً بمنظـر هـذا النهـر الـصغير، والـذي كنا نسميه حقيقة، بحـر الفرات، لقـد سـافر النهر مثلـي واغترب بعيداً، فلم يتبـق منـه سـوى بقايـا نهـر لا يقـدر علـى الثورة والهدير، بل إنني لا أكاد أسمع زئيره عـن قـرب، بل إن أصوات الصيادين المتمددين تحت ظلال الجسر العتيق، وحـدهم يزعقـون، يعلـو لغطهـم علـى رعيـد النهـر، يلعبـون الورق ويحتسون الشاي المخدر، ولا أحد يسبح فيه؟!.

في الـركن الهـادئ والملامـس لميـاه النهـر جلـست عطشانا لا يشرب مـن مائـه، أحس بـالحرارة ولا أتـبرد في مياهه.

من سـوى شـباك وصـنارات صـيد ملقـاة هنـا وهنـاك، وعلـى البعـد مـني صـياد عجـوز أشـيب الـشعر، أسمـر الوجه، يستلقي متراخياً على سجادة طولانية الشكل.

قلـت في نفسي: لم يعـد النهـر نهـراً، لقـد أصبح لونـه أزرقـاً وفيروزيـاً، مـن شـرب الـشوكولا كلـها، أي جبـار فعـل ذلـك؟ لا، لـن أسـبح في مياهـه مـا دام هـو قـد تغـير فبدوري أنا سـأتغير، كل شيء سيتغير.

. في الـركـن الهـادئ والملامـس لميـاه النهـر جلـست عطشانا لا يشرب مـن مائـه، أحـس بـالحرارة ولا أتـبرد في مياهه.

فجأة، طرق الصياد الأشيب على كتفي برفق، قائلاً:

-: تفضل أخي كأس الشاي المخدر..

اهتز شـيء في كيـاني واضـطرب، حـين رأيت الوجـه الأسمـر بتجاعيـده البـارزة، والـشعر الأبـيض الكثيـف، بقايا شيخ قوي البنية، صورته قديمة بـالأبيض والأسـود، في عصر صار فيه كل شيء ملوناً حتى الماضي البعيد..

لحظات الدهشة القصيرة مـرت كـدهر، ثـم تعانقنـا بحرارة وحب، إنه هو وليس غيره، إنه حي ولم يمت بعد، كما مات الكثير من أبناء جيله، سقطوا تباعاً كـأوراق الخريف، وبعد أن تبادلنا لحظات ذكريات..

كانـت الـشمس قـد بـدأت تغـرب، فكنـت حينهـا أضطجع على السجادة، محـاولاً تخيـل نفسـي سمكـة في بحر الفـرات، بينمـا كـان هـو، يصطاد سمكـة مـن نهـر الفرات...

....

حلم موت

ندهت: كيف حالك يا عبود ، يا بني..؟..

ربت على كتفه بقوة صديق، ولكنه صدمني بالقول:

-: لقد حلمت اليوم يا عمي..

صمت قليلا ثم أردف قائلاً:

-: حلم موت، وسأموت قريباً.. سأموت قريباً..

تمالكت نفسي، بعد ثوان من الحيرة، ثم قلت له يائساً:

-: يا عبود الموت قريب منا بما فيه الكفاية.. إنه حولنا وقريب منا ، ولكنه ليس حد نهاية بقدر كونه البداية الحقيقية ، حتى لو كان ذلك نحو المجهول.. إنه مجرد تحول لحظي، من شكل مسرحي للحياة نحو

شكل آخر أكثر إثارة.. وتبقى الحياة تهزأ من كل أشكال الاختباء المثير، لا لشيء لمجرد الإثارة والمتعة..

كنت أثناء شرحي له، بحثاً عن منحه حالة ثقة واستقرار، أعيش في فضاء الثيتان وعلم تناسخ الأرواح، التي مضت مع ملايين السنين، ولو لمجرد وهم خلود الأرواح.

صرخ بألم ظاهر

-: يا عمي العزيز.. ما لا أفهمه بحق هو تداخل الأزمان..

سألته ببرود تام

-: إذا كنا نعيش معاً، في هذه اللحظات، فغداً تاريخ آخر، قل شيئاً..

كان يتكلم باستغراب ودهشة، والأهم تلويح يديه في كل الاتجاهات...

كان عسيراً عليه أن يتكلم ولكنه قال أخيراً:

-: البارحة، بينما كنت نائماً، ومنطلقاً بالسيارة نحو الأمكنة التي لم أرها من قبل، وحين توقفت بعد أن

سمعت انفجاراً قوياً، كنت برفقة أخي، الذي فاجأني بالنداء:

-: هيا اصحُ من النوم، انتعش قليلاً، أريد منك أن تصاحبني نحو المكان الذي ربما كنت تحلم به، وعرفت من الصدى وضجة المكان بل وصخب طرقة الباب الخشبي، فما الذي سمعته؟ بل وقلقت منه وحتى أفزعني؟!..

قال لي:

-: عندما ذهبنا إلى المكان الافتراضي أو الحقيقي، وجدته بالفعل على نفس الخطة الافتراضية، فيما بين حلم، أو خطة مسبقة كان قد أعدها مجرد حلم...

عانيت كثيراً، فما المشكلة؟..

لحظتها قال:

-: اليوم فقط، بينما كنت جالساً في محل ما، أنظر إلى البرجين العاليين، وهما مجرد محطتي إرسال واستقبال، للبريد المركزي، حين وجدت نفسي أمام لوحة مفاتيح، وهي لوحة متطورة جداً، جيل من

الإلكترونيات لم أره من قبل، أبداً، حتى في أفلام الخيال العلمي.

قال والذعر باد عليه، وهو يخاطر بتذكر الكابوس الفظيع:

-: حدث فجأة أن جذبتني أمواج وألقتني وسط نيران مندلعة، ذات أضواء باهرة السطوع، لقد تحول البرجان اللاسلكيان إلى كائنين خرافيين، ينفثان بالمكان هلعاً لا مثيل له، كل شيء يرتجف من شدة الدوران والانزياح والاهتزاز، بينما كانت الأنفاق المتحولة بسرعة هائلة تبتلعني، تنفتح حيناً على النيران، وحيناً آخر يبهرني الضوء الساطع، وتتبهر عيوني مرتعشة من العبث الجنوني القاتل، إلى أن تلقفني باب مصعد غريب الشكل، وحين انغلق علي كدسني كصندوق وأخفاني كصنم بداخله، مع هدير موجي لا أستطيع تصوير مدى رهبته،وحين انقذف نحو الأعلى بقوة دفع صاروخي نفاث، وحين توقف لثوان، كنت أشعر به ينتظرني ريثما أستعيد أنفاسي، كان ينظر إلي شزراً، غاضباً ومرتعداً، فقد نفذ صبره من ثواني الانتظار، كي أنقلع

مـن مجالـه، فمـا كـان مـني إلا أن قفـزت هربـاً منـه، لا أدري أين وقعت....؟!.

تـذكرت بـأنني نـائم، فانـدفعت إلى الـصحو بكـل قواي...

قلـت لـه مواسـياً: - لمـاذا تنـام وسـط كـابوس فـيلم رعب؟..

احتج بكل جسمه وهز رأسه وقال غاضباً:

-:- الله يلعن النوم، وساعة النـوم.. لـن أنـام بعد اليـوم أبداً...

-: ولكن ما علاقة الحلم أو الكابوس خيالياً كـان أو علمياً بالموت؟!..

قال بتراخ وبروح مهزومة:

-: يـا عمـي، للـسفر في قطـار المـوت لابـد مـن قطـع تذكرة سفر، وقد فعلت ذلك، وثبت حجـزي مـن خـلال حلم الموت..

حـين قلـت لـه: - اسمـع يـا عبـود، قـد تكـون كـل الكوابيس والأحلام من وحي الخيـال العلمـي، بـل وكـل

التكنولوجيات في خدمة العلم، إلا الموت يا بني، فقد ظل وسيظل إلى عهد بعيد عصياً، وصعب المراس وقد لا يقبل التآلف مع كل معطيات العلم..

كان يستمع يائساً، كمريض لا أمل له بالشفاء، حين سألته مازحاً:

-: عبود هل تستطيع أن تموت قبل أن يأتيك الموت؟!.. وهو آت لا محالة..؟..

صمت كثيراً، وأجابني مضطراً -: لا، أبداً، لا..

وبهزء سألته: - هل القطار الذي سافرت فيه يعرف أين محطة الموت؟!..

لم يجب بالنفي فحسب بل قال بجرأة غريبة:

-: سأنام وليكن ما يكون، لتختلط الأزمان، الأوهام بالأحلام، وليتداعَ الواقع...

حين ودعني لم يكن قد خرج بعد من حلم الموت، ولكنني أدركت أنه كان قد ذهب إلى الحياة..

الإقطاعي وحقل الشوك؟

الملاعق ترقع، والكؤوس تضرس، والصحون تلمع، ولكن صديقي يصرخ من حين لآخر كالمهووس:

-: جددوا كل شيء، أريد أن أرى الطاولة تضحك مسرورة من وجودنا.. أسرعوا..

كان الكل يهرول لتلبية طلباته، بشكل مثير للانتباه، ورغم محاولاته اليائسة كي يظهر بمظهر المتابع لما أتحدث عنه، إلا أنه بدا لي مراقباً بدقة لسلوك الخدم، وكأنه يريد أن يثبت لنفسه أن هؤلاء لا يستحقون أي جائزة مادية منه.

بين حين وآخر، أتوقع منه أن ينهض، ويتجه إلى صديقه صاحب المقصف ليشكو إليه من سوء الخدمة.

صديقي إقطاعي صغير، هل هو حقاً كذلك!

ينـزعج مـني كـثيراً، حـين أناديـه بهـذه الـصفة، ويردني بحزم:

- أرجوك يا صديقي أن لا تشبهني بالإقطاعي، فأنا أكره حقيقة كل إقطاعي بغيض..

وحين أعلق عليه ساخراً

:- ولكن ليس كل إقطاعي بغيض!.

وأضيف معللاً

-: لو كنت يا عزيزي بغيضاً، فلماذا أكون ضيفاً على مائدتك؟!.

قال بكل حزم: - نعم أنت ضيفي، بل وضيف عزيز، ولكنني اكره أن تصفني بالإقطاعي، مهما حاولت، فكل صفة نبيلة لا يمكن لها أن تستقيم مع الصفة الإقطاعية، فالعبودية والإقطاعية من لون واحد..

شعرت بالقلق العميق، فمن غير المعقول، أن تدلل من يستضيفك، رداً على جميله، في حين يشعر هو بالمهانة في غير محلها، فليس كل مقتطع للخيرات ومستأثر بها، قادر على دعوتي للجلوس على مائدته الكريمة بل

والحافلة بكل أنواع الطعام؟..

لا شيء سيجري في حياتنا المعاصرة في سبيل الله، وقد اقترب الفجر، والإقطاعي الصغير المحبوب، لا يترك شيئاً شهياً إلا وأمر به، أن يحضر، من أجل ضيفه، وكأننا نعيد لحظات هيمنة مقتطعة من التاريخ القديم، من الجاهلية القديمة، أو من حكايا ألف ليلة وليلة، وخرافة الحلم الواهم، للشرق المفقود، بل وصيحة عملاق:

- (شبيك لبيك عبدك ما بين ايديك..).

أيها الساقي، انظر ما يراه ضيفي الوحيد..!!. خل كل شيء يضحك..

كانت النادلة قد غطت شعرها حياء كاذباً، وفجأة نزعته، فتهدل على كتفيها مثيراً، وفي ابتسامة محيرة هتفت جذلانة:- ضيفك ضيفنا، ولن يخرج من الحانة كما دخلها أول مرة..

لم يفعل شيئاً، ولكن أمارات الارتياح، والامتنان ارتسمت على وجهه..

حين ناديت عليه يا شيخ..

قامت القيامة، فقد انفعل، بل وتضايق قائلاً

: - لست بالشيخ في هذا الزمن الرديء..

دخت من مضيفي الليلة، فهو لا يفرق بتاتاً، بين المساواة والتكافؤ، فهو المالك لعشرات الهكتارات من أخصب الأراضي الزراعية، ، بل والتي لم تحصد يوماً ـ بدون استيلاء إقطاعي ـ غير البؤس والفقر، بل ومجرد السمعة الخائبة، من غير خبز وفاكهة، فما أبعد الحلوى، بل وما أبعد المسافة عن المحتاج لقوت يومه، ولو للحظة واحدة في التعبير عن مجرد نزوة؟!.

صرخة داخل نفسي جائحة وغاضبة، تتقاذفني، وتقول لي:

الملكية هي السرقة..

السرقة هي الملكية..

كان صديقي الإقطاعي الصغير، لا يحب الاعتراف بالواقع، ولا يرغب في تسمية الأشياء بأسمائها، فهو بشكل طوباوي، يعتقد بأننا جميعاً سواء بسواء، ويتخيل له أنني إقطاع ثقافة، وفكر متميز، بحيث أن من يمتلك الثقافة كمن يمتلك الأرض، ولذا فليس من

الضروري، تسمية وضعه المحظوظ، لطالما نحن نتشارك اللحظات السامية معاً، نطرق كؤوس الشراب على حسابه، بكل أريحية وكرم منه، فلكل منا موسم وحصاد وفير، سيأتي ذات يوم، لقد كان منزعجاً من كوني أفهم الغد، على أنه يوم غد صباحاً، بينما هو يرى الغد يوماً ما، لقد كان حراً بما فيه الكفاية، بينما كنت واقعياً بشكل محدود بل ومغلق..

لقد تضايقت من سلطانيته التي تجدد كل شيء على الطاولة، بدون حساب، بينما أعرفه تماماً، يحاسب ابنه بشكل تفصيلي وعدواني، في الأحوال العادية، ولكنه من شهر لآخر، ولنقل من موسم لآخر، يشتهي أن نسهر معاً خارج كل حسابات اعتيادية، وهذا أجمل ما في مملكته الإقطاعية، ولن أقولها له ثانية..

حين خرجنا من الحانة، أوصلني الخدم والخادمات إلى تصور واهم، بأنني وهو، سواء بسواء، نستحق الحب والاحترام، أما هو فذلك معروف من فيض البذخ، أما أنا؟ أتساءل لماذا؟!!.

حين خرجنا وابتعدنا قليلاً عن الحانة، رحت أغني بشكل ساخر ومتكرر:

خمرة الحب اسقينها

تري لم تري لم تري لم

رددتها كثيراً حتى أحس برداءة التكرار الهزلي لمجرد جملة..

ضحك مني، ولكنني تركته وحيداً، حين قلت له:

-: اذهب لوحدك، أحب المشي وحيداً مع نفسي، أحب محاورة نفسي ماشياً على أقدامي حتى المنزل..

حلف بأغلظ الأيمان بأنه لن يتركني أسير وحيداً..

قلت يائساً من عملية ثنيه عن مرافقتي، لنتمشَ معاً وسط هذه الدروب الترابية، بدون سيارة، وفوجئت به يسايرني ويقبل بالسير معاً في دروب مظلمة، وسط الأرض الفلاحة المهجورة..

القمامات تملأ المكان، وأكياس البلاستيك السوداء القذرة تخنق النباتات الصغيرة الذابلة والجافة، إلا الشوك الأخضر والجميل المنظر، عدا إبره المستدقة

والجارحة، وشيئاً فشيئاً صار الشوك يكثر ويكبر حتى عاد حقلاً كبيراً يمنع السير في الطريق، فلا بد من الخوض عبر أشواكه كي نصل إلى الطريق المؤدي إلى بيوتنا، كان صامتاً، يتحدث بصعوبة بالغة، لأن المكان كان موحشاً بالنسبة له، فحقول الشوك الأخضر المدبب الأطراف، ليس كمثل النادلات الشقراوات والبيضاوات، وفجأة تكلم صديقي:

-: - هل تعلم بماذا يذكرني حقل الشوك؟

تركته يعاني من ضعف فضولي، وعدم اهتمامي لما سيقوله، ولكنني فوجئت حقيقة، من ذكرى أليمة مسطرة بالشوك الدامي في صفحات ذاكرته الطفولية، عن تلك العجوز، وهي إحدى جداته، فقد كانت جدته التي انتهت وحيدة بدون أبناء، هي بالذات من يمتلك الأرض التي يعيش منها كإقطاعي صغير، الآن، لقد عادت ملكية أرضها إليه، بوصفه أقرب الأحفاد إليها، ولكنها لم تكن تعلم بذلك، حين مهرته بختم لن ينساه أبداً، حين علمت كل أنحاء جسده بضربات دامية من مكنسة الشوك المدببة الأطراف كالإبر..

لابد من التساؤل، ولو من قبيل المجاملة، ومن حق الصحبة المكلفة، بل والتضحية بلحظات الهناءة، بركوب سيارة واختصار المسافات والتواريخ وكل الأمكنة، ثمة تضحية ما تستحق التقدير..

كيف حدث ذلك يا صديقي؟

أجاب بفرح طفل:

-: نعم، أنت صديقي، ولا أتصور لحظة أن لا تسألني.. على الأقل، كيف حدث ذلك؟.. إن لم تسألني أنت فمن تراه سيهتم بي؟!..

قال وهو يشعر بألم كبير

-: تخيل يا صديقي..، هل يمكنك تخيل جدتي تصطاد بالرغم عنها أسماكاً، فلا يقع في شباك نقمتها غيري؟!..

حين قلت له يا صديقي الإقطاعي: عجل قليلاً لقد أثرت فضولي..

ضحك كثيراً هذه المرة، ولم يحتج..

ضحك بمرارة، ثم قال:

-: كنا أطفالاً صغاراً، لم نكن نعرف شيئاً، حين كان يأتي الربيع الضاحك في كل شيء، طيوره وأزهاره وعطوره، فكل شيء فيه يضحك ويغرد.. وفجأة يستوي المشمش، ويعرش في بستان جدتي كشذور الذهب، ونحن عصابة من الأطفال نهابة وسلابة، نعم لقد كنا صغاراً، وفي لحظة ما قررنا أن نهجم كالطيور الجارحة على بستان المشمش الحالك الشقرة، وكانت الخطة تقتضي أن نهجم كالجراد، نقطف الثمار ونملأ عبوب أثوابنا، وننطلق كالسهام، وفي لحظة مارقة، أو بعيداً عن حسابات التاريخ، نحتسب كالصعاليك غنائمنا الربيعية، ثم نتقاسمها، بشكل عادل..

قلت له مشجعاً

-: وماذا بعد؟!..

قال وهو محاصر بكل مشاعر الخيبة والإحباط.

-: تخيل يا صديقي، لم تلحق جدتي بأحد من كل المخططين الإرهابيين، سواي أنا فقط، لقد طار الجميع واختفوا، ما عداي، فانهالت علي مطارق شوك، الإبر والسكاكين انغرست في جسدي، في لحظة قاتلة،

لحارس لئيم فوق التصور، لقد دفعت ضريبة كل مشمش العالم، دفعة واحدة، وكأنني المسئول الوحيد عن عملية نهب لكل فواكه هذا العالم؟!.

لقد كنت ضحية مكنسة جدتي الشوكية، كنت الضحية الوحيدة..

لم تستطع اللحاق بأحد من سراق المشمش سواي، فدفعت الثمن عنهم جميعاً رغم أن البستان سيكون يوماً ما هو بستاني..

طاب لي أن أسخر حين علقت:

-: لقد أضحكت الطاولة من مكنسة الشوك..

ضحك بمرارة، وكأن شيئاً سرياً أعمق من ذلك كان قد حدث.

عندما يختلج الشيخ؟

في الحال، يختلط الواقع بالخيال؟

قررت في نفسي أن لا يكون دوري هنا كدور الشيخ، لست الشيخ ولن أكون هو؟

بيني وبين الشيخ مسافات بعيدة جداً، فأنا أسبح على شواطئ العقل الآمنة، بينما الشيخ أوغل بعيداً في محيطات الحياة؟.

لقد تعود الشيخ على اجتياز الطرق الوعرة، بدون توقف، كسيارة متهورة، بدون فرامل، بل بدون مراعاة لأي نوع من إشارات المرور؟

قد يحدث دمار كبير، وحسب رأيه فلا شيء عصي عن الإصلاح فيما بعد.. (مشكلة؟ وبعد؟!. فلكل مشكلة حل..)، ولمن لا يؤمن فالمعجزة في جيبه؟

حين ولد الشيخ، لم تحدث، حسب ذاكرة معظم العجائز، أية معجزات..!.

لماذا وجد؟. من أوهم الشيخ، بأنه الوحيد؟!. وحيد عصره وزمانه؟، بل وحيد من رضع حليب أمه؟!. في الواقع كان هو واحداً من عشرة؟!..

لم يكن الشيخ ابن آدم، ولا كانت أمه حواء، ولكنه كان أكبر بكثير، لأنه يردد على الدوام:

-: أسقط المخلوقات آدم، وأضيعهن حواء؟!. بل أين حواء وآدم من أمه وأبيه، وحوائه الأكبر ممن يقدسه الناس عن جهل مقيت؟

(كنت أقول في نفسي، لكل إنسان مقدساته وينبغي لهذا المقدس أن يكون قريباً منه، على الجوار منه، إن لم يكن ملتصقا به؟.)

الحياة كانت في البدء مسرحية، وستنتهي كذلك، حيث لا بدء ولا نهاية، مجرد مسرحية، وحيث يقتضي المخرج ستكون النهاية، ومن السخافة بمكان أن نكون قطرات الماء بين غيوم الإرهاصات، ومطر المعجزات؟!.

صدمة كبيرة تبدأ من الميلاد، ستقوده حتماً نحو الانتحار، بل والموت، في عالم مجهول للغاية، لماذا؟. من يدري ولا أحد كلف نفسه بالبحث عن سر ما يجري؟.

تتآلف الصدف؟ أم تتغير السنن الكونية؟!.

صغير أو كبير..؟، هذا لا يهم، لأن الأهم، من سيبقى متراقصاً على صفحة الخلود الأثير؟!..

لكل طاقته على الاحتمال، وأحياناً يكون مقتلنا مجرد سؤال؟.

من البدء، قيل للشيخ: أنت الشيخ، فعلمنا بالذي جهلاً لا نعلم؟ وجريمته الحقيقية كانت في تصديق ما لا يصدق، كما الشهب يحترق، وفي جوف الظلام مجرد شمعة هزيلة، لا نور لها وستحترق؟

الشيخ يهزأ من أديم التراب..؟ وهو بعد لم يتناقض أو يختلف؟!.

يقسم الشيخ بقوة، معتصراً الحقيقة المطلقة، كحبة طماطم بين أصابعه القوية:

- الحياة مسرحية، وما يقوم به الناس من حركات ليس سوى مجرد أدوار..

يصرخ بصوت واثق ومختلج

- لقد اقتربنا من النهاية، لولا عجاج وضجيج البهائم، الآدمية، مع كثرة العلف، والقلوب الغلف، وطباع الجلف، وليس على الله السلف..

سأله أحدهم ساخراً: - هل يوجد موت؟؟

عندما يختلج الشيخ؟

يردد باستمرار: ورب محمد... ورب محمد.. لا يوجد حياة، فالحياة موت، ولا حياة إلا بعد الموت، فالموت هو الحياة، وكل حياة في برزخ الموت ستكون بين موتين..

عندما يختلج الشيخ يهتز المكان، ويضطرب الزمان، وكأن لحظة القيامة قامت والحساب حان الآن فجأة، شي يحدث قبل الأوان؟!.

المادة التي تفتت كالذرات، أو فلنقل كما تطلق في الفراغ، رشاشة عطر، ولكن المكان لا نهائي الحدود، وحين تنتعش للحظات، من نشوى اللا عادة التي يفرح

منها المكان، فرحاً بحلول روح اللارتابة الحية، عوضاً عن الموت الرتيب المستحكم بكل لحظات المكان المشوه؟

قال الشيخ بشكل واثق، وصارم:

- والله، ورب هذا الكون.. كل كهرباء هذا العصر ليست شيئاً، ولو صرخت بها قفي، كفاك ناراً بغير نور لتوقفت..

ضحك أحدهم، وتحقق الشيخ من عمق الاستهزاء الموجه نحوه، فقال وهو يصرخ مختلجاً:

- لا تكوني برداً وسلاماً..

لم يكمل صرخته فانقطعت الكهرباء، وراح يضحك ببراءة الأطفال..

وفجأة اختفى الشيخ في الظلمة، وعلى ضوء القمر رأيناه يتبول على الشجرة، بشكل غير أنيق البتة، وكان بعضنا مشفقاً عليه من الانفصام الشخصي البيسكوباثي الفرويدي، وحين عاد، قال واثقاً

:- بعد لحيظات ستندلع الكهرباء من الجهة التي تبولت عليها، لم يكمل قوله، فشعشعت الكهرباء من الجهة التي أشار إليها واثقاً؟

إذا قال مات أحدهم، لم تكذبه الحياة...

تمنيت ولو للحظة واحدة أن يقول، عاش فلان..

أبواب البيوت المغلقة على الشيخ بشكل عتيد وجبان، تخاف بكل وضوح من كل حقيقة و يمكن لها أن تعبر من خلال شفاهه، ولذلك اضطر الشيخ إلى أن ينام في الحديقة، فوق العشب، كان يدمدم غاضباً:

- مسرحية، انتهت.. النهاية وشيكة، انتهى كل شيء..

لماذا نلتقي به؟!.، وهو الدروب، الليلية الصامتة، التي نخافها، ونحاول في عزلة مقيتة، أن لا نتخيل حقيقتها لمجرد لحظة نوم، بحثاً عن حياة معتادة، ونعرف جميعاً أنها حياة التفا هات بلا حدود، فالبحار لا تخادعها الجسور والسدود؟..

كان الشيخ قد وقع صدفة، فانشق في يده عرق الوريد، ونزف دمه، بل فاض وغطى قميصه الأبيض،

وفي آخر الليل البهيم، كان يبحث عن حنفية ماء، ليغتسل في بلاد لا تعرف الشلالات والأسرار، فالمكان بليد للغاية، ولا حرمة فيه لمجرد دودة حتى لو كانت تسعى تحت الأرض، وأحياناً تظهر؟...

كل الأبواب أغلقت أمام الشيخ ؟!...

الجميع رأى الشيخ يختلج مضطرباً، والجميع خاف من المجهول، وتقرر لديهم، أنه لا يحتمل برغم المحبة الشكلية، والاعتقاد بالثواب والعقاب، وتواقيع، وأكثر من مرة بحقيقة، أقوى من الصواب، فلا أحد منهم سيقبل بغير شهادة السنا فير من أمثاله، والكل كان قد افترق، وكل شيء صحيح، ولكن من يدري ؟..

اختفى الشيخ مختلجاً، وهو لا يملك زمام نفسه، لقد ضاع في زحام الحياة المسرحية البليدة، والتي لم تنته بعد، بل نام أكثر الناس، في خوف بالغ من عودة الشيخ المختلج، وربما من الخوف من أن لا يعود أبداً..

صوته الجهوري للغاية:- لقد انتهت، الحياة مسرحية سخيفة للغاية لمن يعتقد..

الـذنب لـيس ذنـبهم أبـداً، فهـم قـد كـانوا ضـحايا للخوف المقيت، فقد كانت الدماء تغطي صفحة الشيخ الناصعة في النهار الاعتيادي، بينما اللحظات الأخيرة من ليل هذا العالم، متضمخة بالدم.

بل وتتضح بالألم، والشيخ لا يشعر بل لا يحس ولا يدري؟..

بدون استفتاء، بدون رفاق النهار، من بورصة البيع والشراء، بل الربح المؤكد للغاية، فلا قيمة معنوية أو روحية لأي شيخ في هذا العالم، والناس الآن جميعاً نيام!!..

في أية مقبرة، الحياة في المساكن لحظية، ولكنها شبه أبدية لمن لم يجرب النوم متهالكاً في حديقة أو على رصيف؟!..

الشيخ لم يعد أبداً، وأبداً، لقد اختفى للأبد؟!.

الشيخ هو أصدق تعبير عن واقعنا اللا واقعي، لأن واقعنا محتاج حقاً للحظة أن يسمو فوق كل ما هو ساقط فوق ما هو لاقط، فوق كل انحناء، ونحو كل ما هو شموخ وعلاء نحو السماء..

قد ينقضي يوم الأمس واليوم وبعده، وهذا ما حدث فعلاً، فقد تساءل البعض ببرود تام: أين الشيخ؟!.

أين الشيخ؟

سأل أحدهم ضاحكاً بسخرية ممتزجة بالخوف؟، وليته لم يسأل، لأن الشيخ ظهر لحظتها، ورآه الجميع، مر بقربهم مختلجاً، يرغي ويزبد، عرفوه، ولكنه لم يعرفهم، فقط مر بجوارهم، وكانوا جميعاً يختلجون من اختلاط الواقع بالخيال؟!.

الانتظار

الانتظار فظيع، لو أقدر على الصراخ في كل وقت:

-: لم أعد أحتمل شيئاً، لقد نفذ صبري..

هــذا ملخــص مــا أريــد قولــه.. لقــد نفــذ صــبري، واحترقت كأوراق الخريف كل آمالي العريضة، لم أعد أقدر على الاحتمال، لقد صار اليوم الواحد يعادل سنة كاملة، ومشكلتي اليوم مع الساعات الطويلة التي لا تنقضي أبداً.

الوقــت هــو معانــاتي الحقيقيــة، فــالزمن في نفــس المكــان المــوحش، لــن يتزحــزح، نفــس المكــان ونفــس الزمــان، وحــدهما، فهمــا لا يــستعجلان، لقــد نامــا علــى كاهلي كنوم أهل الكهف!..

(لا مفـر مـن القـضاء والقـدر)، اسمعهـم يقولـون تلـك الحكمة العتيقة، المتهرئة، فأزداد التهاباً، أو اشتعالاً،

وكـأنهم يصبون الزيت على نـاري الـتي تئـز وتنفجـر مـن الغليان، فأنا لا أستطيع أن أكون شخصاً آخر، فأنـا هـو أنا ثابت ولا أتغير بسهولة، فكلما اقترب زمـن خلاصـي، ابتعدت عنه بقوة سحرية جاذبة أو نابذة بل وحتى طـاردة، لقد تحولت إلى كائن غريب، يعيش لحظته ويموت فيها أيضاً، لم يعد المكـان مكانـاً ولا الزمـان زمانـاً، ولا أنـا هو أنا، لقد تساوى زمن مـوتي مـع زمـن حيـاتي، ومكـان وجودي مع انعدامي!..

حـين كنـت أعـيش وحيـداً بـلا أهـل، بـدون زوجـة وأولاد، كـالمقطوع مـن شـجرة ـ كمـا يقـال ـ والـصحيح كنت وكأنني أعيش على كوكـب غريـب بـدون بـشر، ولم أكن حينها أبحث عن النهايـة أو الخـلاص، بمثـل مـا آلت أليه أوضاعي في هذه الأيام.

لقـد اكتـشفت نفـسي، وبعـد أن شـخت وشـاب شـعر رأسـي، فجاء الاكتشاف متأخراً، وكم أتمنى لو أنـه مـا جـاء بـالمرة لأنـه وضعني بكـل صـلافة أمـام أسـئلة حـادة، من نوع: هل أنت إنسان شرقي أم غربي؟. وهل أنت شمالي النزعـة أم جنـوبي النـزوة؟!. والأهـم مـن كـل تلـك الأسـئلة

أنني اكتشفت نفسي غير موجود فعلياً في كل جغرافية العالم وتقسيماته المكانية، الطبقية، بل وحتى النفسية.

لا توجد في حياتي امرأة!.. يا للعجب!.

كنت أشرب الخمر بطريقة مقننة وفقيرة، بل وبائسة تثير الشفقة، وكانت لحظات شربها هي لحظات حساب خائب للغاية، ولذا لم أذق فيها أي لحظة متعة، لأن من يشرب حقاً هو من يبتعد هارباً من الغد، بينما أنا أشرب ومن معي من البؤساء نرقب الكؤوس ونعدها بحرص، فكيف سأدوس على أناي الأعلى، وأنا خائف منه وأعد بحذر وعناية، ينبغي عدم الخروج خارج النص المنحوس، ووحدي ومن معي من البؤساء نخشى الغد، فحين تمضي الليلة مع الرغبة بالنشوة والانطلاق بعيداً، خارج واقعنا المقيت، فنحن، وهم لا نريد من أي أحد أن يلاحقنا لدفع فاتورة متعة سابقة؟!..

الفقراء والمحبطون من اليأس الذي كاد أن يشكل غلافاً للأرض، لا يحبون المغامرة، بل ولا يعرفونها، فالخوف هو الخوف، الخوف هو العقل الباطن الذي يفوق كل وعي مصطنع.

حين أتذكرهم، يتحدثون عن المقامرة، وتهيؤات الحظ، أشعر بالحاجة للضحك ولكن بمرارة، لأنهم لن يقامروا أبداً، فالمغامرة هي الخطوة الأولى نحو المقامرة.

إنهم لا يمتلكون شيئاً، فبماذا يقامرون؟!.

يا للفظاعة، لا توجد في حياتي مجرد امرأة!. كيف مرت حياتي؟.

من حق الجميع أن يضحك مني وعلي حتى، لكنهم لم يلاحظوا ذلك، ومن حسن حظي أنني اكتشفت نفسي وقبل أن يكتشفني هؤلاء الأشقياء!.

فكرت وفكرت، فيما حدث ويحث معي، ذات ليلة عدت فيها برفقة نشوة مغدورة، وناقصة، فلم أشعر أبداً بأية لحظة رفاهية وإشباع، فمازلت جائعاً، ويبدو أنني سأقضي ليلتي حتى الصباح بدون حضن دافئ، بدون رغبة بالعيش مختنقاً من لحظات جامدة أنظر إليها، وتنظر إلي ببرود وسكون عيون الأسماك.

حين كنت أنطلق نحو لحظات جمعية خلبية، لم أكن أحصد منها غير لحظات هياج سطحية فارغة، وحين أعود إلى الفراغ نفسه، أتهرب منها باللجوء إلى

الانتظار، انتظار ما لا أعرفه، أو انتظار ما لا أرغب به أن يأتي أبداً ولم أتعود عليه مطلقاً، لقد صنعني الفراغ الكبير وشحوب الانتظار، كانت ساعات حلول المساء تعني البحث عن المتعة الناقصة حقاً، لأنني سأعود وحيداً أواخر الليل، أجرجر معي بقايا حسابات قد لا تنتهي طيلة حياتي.

كنت أحاول تدويخ نفسي بمزيد من الحسابات، كي أشقى وأشقى، كي تأتي ساعة الخدر بكل ما تحمله من غموض وأحلام تعيسة.

قبل الفجر، رن جرس الهاتف، وكان بجانبي، لم أقل أهلاً، حتى جاءني الصوت الغليظ، فأنا أعرفه ولكنني لا أتذكره، كنت أقول لنفسي: (كل ما هو بعيد عن العين، سيكون بعيداً عن القلب أيضاً)، كان بعيداً عني ولكنه كان يذكرني بنفسه وهو مستغرب، فمثل حضرته لا ينسى أبداً، وحين عرفته جيداً، قال لي معتذراً:

-: يا صديقي، أنا لم أنسكَ أبداً، أبداً، أنا مدين لك، ويؤسفني أنك تسهر لقد رأيتك مع تلك الحثالة،

فكم أنا منزعج حين لا أكون معك، لست أتهرب منك أبداً، ولكنها الظروف يا صديقي.

قلت في نفسي، (هذا أكبر كذاب أو نصاب عرفته في حياتي.. هاهو يحاول العودة من جديد، ليته يدفع لي الدين الذي عليه..).

حين قال: يا صديقي أنت الآن لوحدك أم لا ؟..

قلت له متصنعاً الانزعاج:- أيها الساقط، قل شيئاً أو فاصمت..

قال بصراحة ووضوح:

-: صديقتي، تسأل عنك بشغف، وهي تتمنى أن تنام معك، ولو لليلة واحدة، فهل أنت مستعد؟

لم يدرك بعد مدى تعاستي، بل وضياعي من خلال الانتظار الطويل، لأشياء كالأوهام قد تأتي ولا تأتي، إنها تبحث عن المأوى..

لم أكن كعادتي مشبعاً من أي شيء، إلا من الصبر التافه ومن غير معنى أو ضرورة، وعندما أتذكر لحظات الانتظار، سأرتعد خوفاً ويأساً.

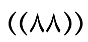
قال بكل ثقة، بدون حساب أو عد:

-: إنها مجرد لحظات عابرة ستراني فيها كالطيف، وبعدها لن يكون ذاك الهراء السخيف.

لقد جاء بالفعل، وكانت برفقته امرأة بل نصف آلهة، كانت تحتقره، وكان يتوسل إليها، وحين رأتني شعرت بأننا كنا قد أحرقنا ثلاثة أرباع أعمارنا بالحساب، ولمجرد الحساب.

كأن لا جوع بعد اليوم ولا انتظار، لقد شبعت من الانتظار، فقد كان الساقط قد ألقى بكل أحماله، وفي لحظة شعور بالذنب، كان قرر أنني خارج دينه الذي لن يقضى أبداً، فالانتظار الحقيقي لن يكون أبداً بدون امرأة، ولو لأول مرة في حياتي شعرت بالحياة.

الانتظار طويل للغاية، ولكن ثم من يحاول اختصاره بطريقة غريبة ؟!.



أنبوب موت الحياة

لقد عدت إلى الطفولة من جديد ، عدت إلى كل تلك الذكريات، وهي ذكريات عالقة بي، كما تعلق الأشنيات بمياه نهر يجري دون توقف، هل أعود إلى الوراء، ثمة قوة خفية تجذبني لأغرق فيها بهدوء، فذكريات الطفولة تبدو مشدودة بحبال أمراس قوية، أو قل تتشبث بقوة مخالب سرطان وقد أنشبت بلحم حي، طري كخلايا المخ السنجابية، فهي لن تفلت من براثنه حتى تتمزق خلايا الدماغ وتهرأ، ولذا فقد انمحت معظم صور الفيلم القديم، من شاشة الذكريات، إلا الطفولية منها، فكلما اقتربت من الموت زادت صورها تألقاً فسفورياً زاهياً، وكأنها الصخور الباقية، الصخور التي لا يستطيع النهر أن يجرفها كما يجرف الأتربة والحصى الخفيف.

لم أعد اشعر بمرور الزمن حين يمضي!. لم أعد أحس به، وهو ينزلق لحظة بلحظة وفي هذه الأيام، تبدو الأشياء من حولي مجرد مساحات باردة أو ساخنة، مضيئة أو مظلمة، وحين أنظر من حولي، أشعر بأن هناك من ينظر إلي، فتتعلق عيوني شاخصة في اتجاه واحد، وعلى بقعة واحدة.

يا إلهي، لاشيء يبعث على البهجة، فالخسارة تتلوها خسارة، الخسران الدائم هو قدري وأبديتي...كل آمالي وأحلامي وحتى أوهامي الصغيرة تهاوت كلها في لجة هاوية سحيقة ليس لها قرار!..

كنت قد مت فلماذا أنا حي الآن ؟!، فلم لم تكب بعد شموع حواسي الخافتة!.. إنها ترتعش ببرودة آخر الليل، يغلفها الندى والضباب وتتموج كالسراب..

هذا ما حدث معي في اللحيظات الأخيرة من حياتي، وهي لحظات زمن نفسي ذاتي، مستغرقة في برزخ الموت اللانهائي وحيث تتكاثف الأشياء في الزمان والمكان لتعادل دهوراً من الحياة السابقة.

لقد كبر جسمي وخرج من معطف الطفولة، فهل سأعود إليه ثانية ؟!.، فلكي يحدث مثل ذلك فلابد أن يتقلص جسمي كثيراً، وهذا ما لاحظته في الأعوام الأخيرة، لقد بدأت أتضاءل، وحجمي ينقص، وهيكلي العظمي يتقلص، يحدودب، ووزني يتناقص بشكل متسارع، حتى لم أعد أنا نفسي أتعرف على نفسي.

أنا سأموت حتماً، وقد مت من قبل آلاف المرات، ولأنهم يحيطونني بعطف بالغ كي لا أموت، فلم أمت بعد، فما الذي سيتغير!. لاشيء غير الخيبة، فالحقيقة أنني مجرد وهم لا ماهية له ، رغم تعاستي العميقة كانت مظاهري السطحية البراقة والعابرة أثر ما.!.. لا معنى للاستسلام وقبل الأوان، كما يحلم الأحبة، بحثاً عن بقايا بقاء خائب للغاية، رغم عذاب اللحظات؟..

لا مفر من الموت، فالموت قادم، فلماذا هو آت حقاً؟!. من منا سيشعر بالاضطراب صراحة؟!.. من يستسلم لقوة وهمه، أم من يسري فيه الشعور بوهم حقيقته؟!.

نموت حقاً، لابد أن نموت، البعض يراه بداهة ويستسلم، والبعض الآخر يقاوم جفاف الحياة بقوة بقايا

الحياة في لهيب العطش في جحيم الصحراء المحرقة، فكل كائن حي يأكل ويشرب من موت الكائنات الحية، ولكن الحياة ذاتها هي من يأكل كل شيء؟!...

الميت أكثر حياة من الحي، لأن من يموت سينتمي بقوة للحياة الباقية، ليصير فيها مجرد حرف صغير من سفر الحياة..سيندمج الحرف فلا يظل نافراً.

قد لا يأتي الموت!؟. ليت أن الموت يأتي مرة واحدة... الإنسان يتعرض للموت أكثر من مرة، ولكنه لا يموت!. إنني على موعد كريه مع الموت، لا.. ليس الأمر كذلك فكل الشقاء واليأس يحدث حين نعيش لمدة طويلة، في حالة انتظار حتى يقدم بشكل مقيت، بدون موعد، فهو حر إلى حد السخافة، ليأتِ لحظة يشاء، من غير موعد، سوى حقيقة أن يأتي ولو من غير موعد؟!..

تزعجني مزاجيته الحامضة والفر دانية، إلى حد اشعر به عدوانياً، ومغالياً في مكابرته، إلى حد الاستهتار بكل الأرواح..عما قريب سأموت براحة تامة.. قد لا يحدث ذلك أبداً... فقد لا أموت فهل يمكنني أن لا أموت؟!.

ربما يحدث ذلك بشكل استثنائي، أنا أعتقد أنني لن أموت أبداً، وحين لن أموت فما الذي سيتبقى مني؟!.. ثم.. لماذا أموت وكنت قد ولدت ؟!. فالقدرة على الاختيار محض خيال فما دخل الرغبة والأمنية..!!. فكل شيء كان تم بشكل سلس، وقس على ذلك.. تلك نظريتي، وكأن كل شيء أحبه اكتمل وتم، ومر من غير هم وغم.

لم يكن الليل البهيم من الظلمة، قد أضاء والتمع، وكأن لا أحد كان قد أستمع، لاشيء مفهوم وبل ولاشيء يمكن له أن يصغي لمجرد اللحظة أو أن يستمع، لحظتها صاح من يأسه الفظيع:

- يا للاختلاف كم هو فظيع والأفظع منه حقاً أن لا نتفاهم ونجتمع.. ثقافتي محدودة وبسيطة، ربما كنت مجرد قروي بسيط وأعلي من شأن أن أكون مجرد أمي، فلا أفرق بين جهلي العتيق، فما الفرق بين همي وغمي؟!..

كل من أحبني كان بالنسبة لي مجرد أم.. لقد كانت قد ماتت من عصور، فليس لي أم على الإطلاق،

ولـن تكـون.. سـأغادر الحيـاة حتمـاً حقـاً، ولكـن لمـاذا طوفان هم وغم؟!...

حملـتني فلـو كـان بمقـدوري رد دينهـا، بجـزء مـن قرآنها.. بتلاوة الجزء عم ..

هو الموت والانتحار.. هو اللا فرق بين حليب الرضـاعة وما أشربه كسم..

أليس بمقدوري أن أتطهر بالدم؟!..

أحاول أن لا أضحك بعمق، فقد بكيت كثيراً ولم يرني أحد، وقد أبتسم بشكل واه، ثم أخفي سر بقائي، ولكـن إلى متـى؟!..إلى متى سـتبقى هكـذا، بم سـتقابل وجـه ربـك، وجـه رب العـالمين؟.. السـكر دومـاً، والسـهر حتـى آخـر الليـالي، ثـم نـوم النهـار بأكملـه، ثـم الـصحو المقيت والبطيء جداً، شيء أو لاشيء، انتفاخ أو تلاصق، القطـب شمـالي أحيانـاً، مـداري بشـكل فوضـوي للغايـة، ملكـــي أريـــستوقراطي، أم شـــعبوي فوضـــوي منفلـــت، الكل منفلت حقاً، فكل من ينتحـر في محيط الشقاء، هو حقـاً مـن يبحـث عـن الاستقرار والقـرار في عـالم ليس

فيه محطة للتوقف والاستقرار، فالمتاهة تتبعها خرائط للمتاهات..!.

الجيل الذي أنا منه ينقضي، يمر سريعاً بدون تردد، لقد شبع من الوجود، فلم يعد يخشى الخلود، فلطالما قفزوا، ولكن بين جيل وآخر تكبر وتعلو الحواجز والسدود؟!.. أوشكت على الهلاك، وربما حلت ساعة موتي.. الموت الأخير..

من يدري، لقد جاء دوري، عفواً لو كان الأمر بالدور، لكنت لحقت بربعي قبل هذه الأيام، وقبل سنوات وسنوات.. أشعر بنفسي كالوعاء الفارغ.. فارغ من كل شيء!.. أشعر بالفظاعة تغمرني كمستنقع آسن.. ربما كنت لا أشعر بشيء على الإطلاق.. كأنني آلة خرجت منذ عقود من نطاق الاستعمال، فنحن نعيش في عصر غريب، يلقي بكل شيء، نعم كل شيء، وربما سيلقي نفسه أخيراً؟!..

لقد اقتربت كثيراً من حافة النهاية، وفي هذه المرة لن أصحوا أبداً، هذه المرة مختلفة حقاً لأنني أشعر ولا أشعر، أحس ولا أحس، فأنا موجود وغائب في آن معاً...

أشعر بالحاجة للآخرين كي يعرفوني .. فهل أنا ضائع ومفقود ونكرة؟!..

منذ مدة طويلة، لا أذكر متى!. اعتكفت بالبيت فلا أخرج من ظلامه نهاراً، وحين يعسعس الليل ويسود الهدوء، أخرج للحديقة المجاورة، فهناك أجلس تحت الأشجار وحيداً، في ركن غابي بعيداً عن الأنوار.. أشعر بالرطوبة الدافئة أحياناً ويلسعني الملمس البارد للأشياء من حولي، أحياناً أخرى، فألتف بعباءتي السوداء الصوفية، فأظل أنتظر قدوم الفجر لأعود من جديد.

كان طفلاً صغيراً، وكنت أحب أن أحتفظ بذكراه طفلاً، ولكنه صار يكبر ويكبر، حقاً لقد كبر بسرعة، وهو الآن يتصرف معي كرجل، أذكر أنه كان حريصاً، ينتظر عودتي كل فجر فلا يتركني حتى أستلقي كجثة هامدة على فراشي، وعندها يغطيني ثم ينصرف بهدوء.

رغم أنها لحظات موتي الأخيرة، مع أنبوب موت الحياة، وربما كان هو السبب في غرس هذا الأنبوب من خلال فمي، لأتعذب في لحظات موتي، فهو لم يدرك بعد

أن المزيد من الحياة، هو العذاب، أن في الموت تحرراً وراحة للجسد، حين ترفرف في الفضاء أجنحة الروح الحبيسة..؟.

نعم لقد كانت أمه تعرفني، تحبني وأحبها، وكان هو يحبها ويرعاها بحنان بالغ، وقد حفظ الدرس منها، وقد أوصته قائلة قبل عجزها، وإلى اليوم توصيه أن يرعاني

-: يا بني لا تدعه ينتهي ناكراً لنفسه... كن معه لحظة ينتهي ويموت، فنحن سنكون بانتظاره، لأنه لم ينكر أحداً، ومن الغريب أن يتنكر لنفسه، إنه لا يستأهل لنفسه هذا..

لقد قالت هذا مثل الكلام ذات ليلة.. لماذا؟.. ألأنني تساءلت أمامها ذات يوم كأبله؟..

أنا هو ؟!.. من أنا ؟!. أسمعه يقول عادة: مهلاً أبي!.

إنني أسير آخر الليل ولا أدري إن كنت أعرف أين أنا ؟ هل أشعر بالبرد أو بالدفء.. لست أدري!..لماذا يطاردني شبح السكون الموحش، وظلمة آخر الليل، في وحدة تنضح بالتعاسة، ومن الغريب أن أكون أنا نفسي

في هـذه الأيـام وقبـل مـوتي القريـب، فقـد كنـت مفعمـاً بالأمـل وروح الـشباب الـتي لا تنـضب أبـداً، كمـا كنـت أعتقـد، بـل وكنـت قـادراً علـى اختلاق الأحـلام والآمـال الـسعيدة، حـين أضـع نفـسي ولـو بالخيـال، علـى يخـوت الملـوك، وأعـيش مـسترخياً بيـنهم، عنـد أجمـل الجـزر والخلجان الساحرة، وكأن نبع الحياة نضب قبل الأوان، شيء ما كان قد طار بعيدًا، بعيداً، وتركني وحيداً، فلم أعد أعرف، ولم أعد أسمع، أو أفهم، فصرت غريباً عن نفسي؟..

من أنا وأين أنا؟.. لا شيء يحنو علي سوى الطبيعة.. لا شـي يمـلأ جـسدي قـوة سـوى الـتراب، رغـم أن كـل مـا حولي أسود، بل وأسود ينوح فجأة كما ينوح الغراب!.

الفجر يوشك على الشروق، وأكذب إن قلت إنني لا أفهم الظلال القاتمة تحت تلك الأشجار العتيقة، بل ولا أستطيع إنكار ذلك المنحدر الأخضر نحو النهر العتيق، والـذي صـار بعيـداً عـن المـاء، وصـوته الهـادر وهـو يلطـم المكان بقوة تهديد حقيقية، أين هو الآن؟!.

لماذا تقف هذه العمارة في قبالة ضوء الفجر والضياء، بل ولماذا بنيت على هذه الطريقة، لتتحدى إشراقة الضياء والنور؟!.

ما معنى الشعور بالوحدة، مع الطبيعة، أذكرها جيداً، بينما لا أحد من البشر من حولي يحس بوجودي هاهنا، ألأن الناس نيام؟!..

عفواً أحس بأحدهم هنا يضايق المكان يزعجني بين فينة وأخرى، وأحسه يقول

-: كفاك.. تبصر انظر من حولك..

كان ذاك الحارس المتطفل، شاذاً للغاية، فشعره أسود ولكنه مستعار، قلت لنفسي نعم ربما كان هذا الشخص هو من كان جاراً لي ذات يوم.. لا أذكر أبدا، لماذا؟!.. إنه ليس ابني على الإطلاق.. لماذا أنا واثق من ذلك، بينما هو لا يتأثر لكل ما يمكن أن أفكر به!.. أو أقوله عبثاً.. لماذا يتضايق مني ومن وحدتي فجر هذا اليوم ورحت أنظر إليه بصمت، كان يشعر بالضيق.. يتألم.. لماذا!؟.. لا شيء يستحق ذلك..لا أدري إن كان حزيناً أم متشائماً!..

أذكر أنني كنت قد قلت له متهكما:

- إياك أن تغضب أمك.. أمك هي الواقع، بينما نحن جميعاً مجرد خيال، كالظلال المتحركة بين الأشجار الوارفة، حين تتراقص الأنسام نشوانة بين تضاريسها الحانية وبعيداً عن المياه والصخور..

أذكر أنه قال لي بنبرة قاسية وجادة:

:- دعك من التوحد مع الطبيعة المهم أن تنام، في فراشك، لن أدعك لوحدك، فقط اسمح لي أن أحملك على ظهري.

كم مرة أعدت على أسماعه اسطوانتي المشروخة قائلاً وكأنني فيلسوف زماني:

-: اسمع يا بني.. لا تنسَ أبداً هذه الحكمة، فالعظام الصلبة والقاسية للأنا الأعلى لا تذوب وتتفتت أملاحها، إلا في أسيد الخمر..

كان يقول لي حزيناً:

-: سأكون شقياً لو مت قبل الأوان.. لولاك أنت لكنت متشرداً، أنت أبي الحقيقي، أنت أبي الذي لم أره أبداً. ثم تشرع أنفاسه بالتقطع..

كان يبدو مستغرباً وحزيناً من فرحي الطفولي الخرف، فظروفه السيئة، وقسوة الحياة السهلة اللينة عليه، تدغدغني، فأروح منغمراً بسيل من رذاذ البهجة المنعش.. فلولانا نحن الكبار لما تبختر هؤلاء الصغار..

قلت لنفسي -: هذه المرة سأنام وحيداً.. ولكن إلى ما لا نهاية.. ستطويني ظلمة الأبدية بلحافها؟!.. يا لعذوبة الكلمات الطرية لو كنت سمعتها من قبل لما كنت ضحية للأشجار والأطيار ونور الفجر القادم والذي لم تفارقني ظلاله الأخيرة..

هل أستطيع معرفة نفسي، من أنا ومن أكون؟.

الآن أحاول اكتشاف ذاتي، وبعدما ضاع عمري سدى!.حين كنت قوياً لم أكن أشعر بالحاجة لاستخدام قوتي، وحين انقضت وإلى الأبد، رحت أتحسس عضلاتي الخائرة، بعدما تضاءلت وعجزت، بل وضمرت وتلاشت.. ولماذا أفكر في مثل هذه الطريقة؟ لماذا أفكر أصلاً؟!.

ينبغي لمثلي أن يغادر المكان بدون تردد ، فقد كنت مثل طلقة طائشة وبعد أن انطلقت راح من أطلقها يفكر بالتسديد بشكل دقيق!. لا يهم أن ستمضي لأن مجرد التفكير بهكذا نهاية سيكون أمراً مرعباً للغاية ، ولكن الأمر تم بنزوة وبكل بساطة.

أنا في العقد السابع من العمر، نعم لقد شخت.. أصبت بالعجز المبكر.. إنني لا أبصر جيداً.. من كثرة شرب الكحول، لم أدرك بعد ما الزمن حين يمضي ولا أستطيع السير مسافات بعيدة.. لابد لي أن أتوقف دائماً كلما سرت مسافة ولو كانت صغيرة كل جسمي النحيل يهتز بقوة، أعضائي متمفصلة ، فهي ظاهرياً متصلة غير مقطعة ، بينما هي بالنسبة لي منفصلة عن بعضها البعض، لقد تعودت على الشعور بالاضطراب في حركاتي، ولكن أكثر ما يزعجني فقدان الشعور ذاته عند الغثيان لمجرد جهد بسيط.

لماذا كل ما في جسدي يرتعش! بل ويرتجف وكأن الراحة فلتت من قبل انفلات روحي! وهو مالا أحسه

حقـاً، إلا عنـدما أتمـدد مـستلقياً علـى ظهـري، وأغمـض عيوني..

لم أعـد أدرك الـصورة العامـة للواقـع، لقـد صـرت مختنقا كجمرة سيجارتي الأخيرة، أين هـي؟!..

متى كانت ترافقني؟!.. حين كانت في العقب الأخير وكنـت لا أطيـق فراقهـا، ولـكننـا افترقنـا بـالرغم عنـا؟!. كيف يغادرني الشعور الأكيد، بأننا سننطفئ معاً؟!!..

لقد كانت نهاية صحبتنا تعيسة للغاية، فكـم مـن مـرة، احترقـت سـبابتي والوسـطى، ثـم قلـت لنفـسي مـشجعاً، لم يـزل هنـاك احتيـاطي بعـد، مـن الخنـصر والبنصر والإبهام، بل وهنـاك الـسبابة، واليـد الأخـرى.؟!.. فإصبع واحد فقط يكفي لعمل كل شيء.. كل شيء..!.

بينمـا تـسلل المـوت وفي غفلـة مـني، ألحـظ ذلـك مـن وهـني الـشديد، وروحـي المعذبـة بقـسوة بالغـة لقـد تغـير الزمن، فهـو يتحـرك كشبح ولكنـه لا يمـضي، وكأنـه قـرر الاسـتقرار فجأة ؟!..

الآن أقول لنفسي، ولن يسمعني أحد، فإطـار لـوحتي أسـود واسـود للغايـة، وكـأنني قطعـة مـن ليـل فـاحم

السواد، بينما شرعت ممحاة بطيئة الحركة تمحوني خطاً خطاً، فالممحاة صغيرة جداً وأنا أتألم من تلك الحروف الصغيرة الضامرة، والباهتة، حيث لا ضوء يكفي للشعور بها لكنني أحس بالفراغ، نعم بالفراغ..

إنني أنمحي تدريجياً، وفق مسطرة ضئيلة ولا أراها، لماذا لا تبيض صفحتي مرة واحدة؟!..

لاتهمني شيء بعد الآن سوى رؤية أن كل شيء سيكون أبيض كالضوء الساطع، لأنه باهر بدون ملامح مميزة.. أمامي الآن محيطات كبيرة، وصحارى قاحلة، وماء يختلط السراب، وكل شيء فيها من لون واحد، ولا يعكر صفوها سوى طيف من شخوط حروف لا أكاد أميز فيها حتى كلمة أنا؟!..

ما هذا الأنبوب الموضوع في أنف ؟. لعله أنفي!!..

لماذا أرجوهم خلعه ولكن لا أحد يستجيب لندائي ؟.. دمدمت ولم يفهمني أحد، رمقتهم ملياً وأنا بين الصفحة السوداء، والجزء الصغير الأبيض بفضل الممحاة الصغيرة.

من أنا؟. من هم؟!.

المحاة الصغيرة تشطب بنهم نملة الحروف السوداء المعتمة، فقد كان قدري أن تنقضي الأشياء ببطء كالسكون.. هذا الأمامي بشرى لخير ورحمة، لقد حملته صغيراً، أليس كذلك ؟!..

إنه هنا ليعيق تلك المحاة المجهدة من الضياء والظلام، إنه يمنع ريشة روحي من الانطلاق نحو الفضاء الرحب، لمجرد وجوده، يمنعني من الاحتراق اللذيذ فوق تلك الجمرات المختبئة تحت سواد الفحم والجمر؟!.. يا، عفواً، من تلك التنهمل دموعها الغزيرة؟!..

أنا معذب حقاً، وأنمحي ببطء، كان الأبيض طبيبي، بينما كان الأسود موتي الأكيد، فمن هو الأمهر؟!.. من سيلبي رغبة الجمهور المحمول بسعادة بالغة بين أكفي والمضموم بقوة الحياة إلى صدري؟!..

صرخت مهتاجاً ورغم الحب الجارف الذي تناوشني، كما تتبعج الدريئة من رصاص المتدربين عليها في هياج..صرخت، وكانت المحاة تصنع العجائب ببطء...

دعوه يموت بسلام.. انزعوا كل تلك الأنابيب.. انظروا لعيوني المنطفئة.. انظروا لموتي القادم وكانت

المحـاة الباسـلة قـد قامـت بواجبهـا وفعلـت فعلـها فـصار كل شيء أبيض، وتحررت أخيراً.. وداعاً يا أحبائي.

حـين انتهـى مـوتي وعزائـي كـان هـو نفسه،ولوحده وبـرغم شـعره الاصطناعي المقيت، يتحـدث بكـل طلاقـة عن لحظات حياتي الأخيرة..

كـان يعـيش لوحـده متوحـداً مـع الطبيعـة، لا يحـس بالأشياء من حوله، ولم يكن موجـوداً أبـداً، بقايـا جسد من غير روح، لا يفقه أو يفهم بل ولا يعي، لأنه كـان علـى موعد مع الموت، وربما مع النهايـة، ولكـن بـدون أنبـوب، وبدون أمنيات وأحلام خائبة..

قال لي مبشراً: - لم يكـن أبـداً مقهوراً وتعيساً، بـل لقد كـان واثقاً ومطمئناً للغاية بأن اليوم القادم هـو غـداً، وسـيكون حـافلاً بالمفاجـآت الغريبـة،ولكنها أبـداً لـن تكون شيئاً عجيباً، وغريباً، ولكنه مات قبل الأوان...

حين علمت بموته، لم أستغرب، وكنت كمـن يعلـم نهايـة الأشـياء، لـولا فـضولي بمعرفـة آخـر لحظـات المـوت وعلام يكون الموت وقبل الأوان ؟!..

قال لي مسراً :- كان وحيداً ، لم يفهم أبداً أننا كنا جميعاً سنلاقي المصير ذاته

لأنه كان عاطفياً بل ومغناطيسية عواطف، من أبي إلى أمي، وحتى لحظة أن بدا لي عبر الزمن والتهافت كمجرد غبي..!!!!!!!!!!!

سأموت، حتماً أموت، فالموت يرافقني كأنه ظلي الأكيد ، لم أعد أغفو أو أنام، ليس ذلك بسبب عدة أيام فحسب، بل منذ أكثر من عقد من الزمن..

أحتاج لمجرد لحظات فاصلة، حتى لو كانت مجرد جدار وهمي فاصل، فيما بين الموت والحياة، لقد شبعت مللاً من العجز والمرض وحتى الشيخوخة؟!..

ما أقسى الموت لو كان يأتي، لم لا يأتي؟!.. وبالضبط باللحظة المناسبة، عند الطلب كلحظة الانتشاء والغناء من الطرب؟!.

باختصار لقد اكتشفت في نهايات حياتي أمراً مزعجاً ، بأن الموت حر بما فيه الكفاية فهو يأتي لوحده، كما يشاء، لحظة يشاء، ولحظتها تكون القمم والوديان على الميزان سواء، لذا يتضخم العناء... شكراً

لأشجار ظللتني ووقتني حرقة الشمس.. لقد كنا بالأصل قد جئنا لنعيش للحظات ولكن لنموت أخيراً ، فهل عشت حياتي قبل أن أموت أم لا ؟!.

لم يعد هناك ألم و لا مرض، ولا موت لأنني أموت..

فقط لو ينزعوا عني هذا الأنبوب اللئيم، أنبوب موت الحياة..

الاعتراف

الاعــتراف لا يعــني الهزيمــة والاســتــسلام أبــداً، فالاعتراف حياة بل لا حياة بدون اعتراف..

ولكن الاعتراف مجرد دماء جافة، عالقة بسكين النهاية، وفي اللحظات الأخيرة..

يبــدو أن كــل إنــسان بحاجــة للاعــتراف، ففــي الاعــتراف تــسود لحظــات تــصالح مــع الــنفس، لتكــون الحياة صالحة في كل الأحوال....

هاجمته روح سخرية عابثة، حين تصور نفسه يكتب على منوال مقولة ديكارت:

أنا أعترف.. إذن أنا موجود..

ثم قطب حاجبيه، وتساءل بشكل صارم:

نعم، لن يعترف مطلقاً من هو غير موجود، ولكن الاعتراف ليس شكلاً وحيداً في التعبير عن الوجود، ثم تساءل مستنكراً بوضوح:

-: أمام من سيعترف الإنسان؟ فلو كانت كل الكائنات الحية تعترف، لحدث في العالم ضجيج وصخب يفوق ما يحدث في أيامنا هذه..

الاعتراف موهبة لا تمنح لكل الناس، لأن من يبادر من تلقاء ذاته سيكون حراً بما فيه الكفاية، بينما أكثر الناس لا يعترفون إلا حين يتصادمون مع الجدران الصخرية الناتئة، وهو اعتراف مشوب بالألم، ومشاعر الندم، وربما بعد فوات الأوان..

معادلة الحياة التي تضم عدة متغيرات سامية، من الطبيعة والتاريخ، وحتى الذات الفردية، إلى أن يتساوى فيها الشكلاني الهندسي البديع، مع فوضى العقل والممسوخ الفظيع، وفي الفضاء الشعوري المضطرب على الدوام، فالزمن البليد يشع في كل الاتجاهات كنور باهر الضياء لا يعرف مصدره، واللحظات الحسية التي تشبه في تراسيمها توتر الطائر في قفص، وهي حين تمر

كـالبرق الخـاطف، توقـع لحنـاً فيـه شـدو أنـين، لـكـائن حي كل ما فيه غامض، بـل وكـل مـا فيـه مؤقـت، حتـى أن لحظـات الحيـاة الـتي تـتغير باسـتمرار، لا تحمـل في طياتها سوى عبارة نكران، أو نفي بدون حسبان..

كـان أسـتاذ الفلـسفة قـد تجـاوز مرحلـة المـسؤولية والتربية، بل وأحيل علـى التقاعـد، فبعـد أن شـاب رأسـه، هاجمـه الـصلع، فأصـبحت جمجمتـه دالـة علـى النهايـة المعتادة على نحو غامض، لقد كان مربوع القامة ممتلئـاً، بينمـا الآن تـضاءل حجمـه وصـار قـابلاً للطـي في حقيبـة عادية، وهـي حقيبـة يمكـن لهـا أن تهـرب إلى عـالم آخـر، في لحظة تفاعل عاطفية باهتة وعادية..

في الحيـاة أوضـاع متعـددة، فحـين يكـون الكـائن الحـي أو العنـصر مجـرد ذرة، فـسيكون الـضغط الجـوي عليها وحتى الجاذبية، من الضآلة بمكـان حتى الرمزيـة، وربما اللاشيء..

نعـم يوجـد تنـويم مغناطيـسي، وأنـا الآن أعـترف، فكيف حدث ذلك ذات مرة؟

كنت قد نومت نفسي بشكل علمي، وفقاً لمبادئ كنت قد تعلمتها، ولكنني كنت على شك كامل بما أقوم به، فمن غير المعقول أن يسحر الساحر نفسه بما هو في شك منه، ولكنني فعلت ذلك بشكل واقعي وكأنني شخص آخر، بل قل ضحية من ضحاياي، كنعجة تذبح من أجل عيش الآخرين، ولو كان ذلك وفقاً للطريقة الشرعية، وقد سرى السحر بالفعل في كل أنحاء المكان ولم أكن أعلم أبداً أنني سأكون ضحية لعملي العابث، وحيث لا أحد يسخر من نفسه، مستحيل..؟!. هل يوجد من يجرب سم المعرفة على ذاته بكل حرية ؟!..

حين نمت بحرية تامة، كمن يسكر ثملاً ولا يشعر بنفسه مطلقاً، ماذا قال وكفر، وماذا فعل ولم يشعر، وهو غائب أخيراً عن كل وعي زائف؟!..

أعتقد أني كنت قد صحوت من النوم، ولم يكن صحوي مبكراً، إلا أنني أشعر بشيء من الخطيئة التي لن يغسلها شلال عال من مياه الاعتراف؟!..

لابد من الاعتراف، فالاعتراف صنو للوجود.. ربما؟!..

في اليوم التالي صحوت، وكنت أعيش بحكم العادة، فلا شيء جديد، ولا لحظة للاستغراب والدهشة، فكل شيء عادي، عادي جداً، فعروق اللحظة التي أتنفس من خلالها واسعة، بل وهانئة للغاية، بحكم العادة القديمة الأزلية في نسغ الوهم..

شيء غير معقول؟!. أنا هو من كان بالأمس كذلك، أنا الطبيب المزعوم والمريض فجأة، كل شيء جائز، لقد جربت الدواء الحقير والتافه على نفسي لمجرد مرة واحدة، فها أنا ذا أجد نفسي ضحية من غير داع سوى السقوط بين براثن نزوة عاتية؟!..

بين ليلة الأمس البارحة واليوم، خط فاصل، لا علاقة لي به، فأنا الطبيب بحكم العادة، ولن أكون أبداً ذلك المريض المنحط القوى، حيث لا نفس ولا روح ولا قوة..

نعم أنا هو من شوهد ليلة الأمس، منحط القوى، يائساً من غير ضغط حقيقي، ولمجرد تجربة، فلماذا يحتاج التجربة من أجل الحياة من هو مثلي، بل وأي داع للمعاناة؟!..

بين نهاري وليلي لم يعد هناك أي خط فاصل، ولو من الكذب والصدق بل وحتى هوامش للاعتراف، لقد كنت جريئاً حقاً و فقد جربت حظي ولو لمرة واحدة وقد تكون الأخيرة بحكم المصلحة الجبانة، في أن أكون ولكن ليس من غير اعتراف ولو لمجرد لحظة واحدة من حياتي، وهي مجرد لحظة واحدة ضائعة في وهج الضياء، في زمن بريء لا علاقة له أبداً بكل مشاعر النقمة والاستياء، لقد طحت ووقعت أخيراً، فكل من رآني قال بصدق يشبه الاعتراف، وهو ما أبحث عنه بشكل واقعي كاذب جداً:

-: لقد رأيناك بالأمس طبيباً مريضاً، يبحث عمن يداويه، بين عسى ولعل، بل ورأيناك تبكي وبصدق وتعترف، بأن الموت هو الحياة ذاتها، فلا شيء غير الموت...

أنا هو الطبيب، بل والمريض بلا شعور، فمن سيعترف للآخر؟!.

لابد من الاعتراف أولاً وأخيراً.. لابد من الاعتراف أولاً وأخيراً...

قصص المجموعة